

روايات الجيب
وادي الأهوال
بطلها
شرلوك هولمز

وادى الاهــوال

رواية بوليسـية لم يسبق نشرها باللغة العربية

بطلها البوليس السرى الاشهر

شرلوك هـولمز

تأليف آلكاتب الانجليز الكبير

السر آرثر كونان دويل

تعـريب الاسـتاذ

محمود مسـعود

القسم الاول — فاجعة برستون

الفصل الاول — الانذار

كان شرلوك هولمز مستغرقا فى آفكاره وقد استند بيده على المائدة وطفق يمعن نظره فى رقعة صغيرة استخرجها من غلاف امامه . ولم يلبث ان تناول الغلاف وعرضه الضوء وأخذ يفحصه فحصا مدققا ..

وقال آخر الامر :

ــ ان الخط هو خط بورلوك .. وانى وان كنت لم اره سوى مرتين من قبل لا اكاد أرتاب فى ان هذه الرقعة من كتابته . ولا شك انها على جانب كبير من الخطورة .

ــ ومن هو بورلوك هذا ؟

ــ بورلوك يا وطسن هو أسم مستعار قد أصطنعه لنفسه شخص واسع الحيلة عظيم الدهاء .. بين لى صراحة فى رسالة سابقة ان هذا الاسم مختلق وتحدانى ان اترسم اثره بين ملايين البشر الذين تغص بهم هذه المدينة العظيمة . ولست اسبغ هذه الخطورة على بورلوك من أجل شخصه، بل من أجل ذلك الرجل الخطير الذى يفرض عليه سلطانه، احسبك سمعتنى أتحدث عن الاستاذ موريارتى .

ــ العالم المجرم الذائع الصيت .. المشهور بشخصيته هذه فى الاوساط الجنائية وان كان ...

فقال هولمز مؤنبا :

ــ واخجلتاه يا وطسن ..!

ــ كنت اريد ان أقول : وان كان الجمهور يجهل حقيقته .

فصاح هولمز قائلا :

ــ هذا تعريض بين بالرجل يا وطسن . وما أراك حين تنعته بالمجرم الا مرتكبا فى عرف القانون تهمة القذف فى حق الغير . وهذا لعمرى اعجب ما فى الامر . لكن الواقع أنه أكبر رأس مفكر عرف حتى الآن ومدبر كل عمل شيطانى .. بل هو ذلك الدماغ الجبار الذى ينسج خيوط الشر والاجرام .. ويكيف مصائر شعوب بأسرها . بيد أنه يبتكر من وسائل مدهشة لدرء أسباب الشبهة عن نفسه يسمو عن الشك والشبهة .. حتى انه ليستطيع ان يسوقك الى ساحة القضاء من أجل هذه العبارة التى تفوهت بها فى حقه . ثم يخرج من المعمعة ظافرا بتعويض ضخم لشرفه المثلوم . أليس هو ذلك المؤلف الطائر الصيت الذى وضع كتابا فى حركة الاجرام السماوية يتناول أعوص المسائل فى عالم الرياضيات وادقها حتى ليقال انه لم يستطع ان يبرز اليه فرد من الدوائر العلمية بنقد أو تمحيص ؟ أفمن كان هذا شأوه يجوز فى حقه قدح يا وطسن ؟

ــ صحيح . ان المدعو بورلوك هو حلقة الاتصال بينى وبين ذلك الطرف الآخر . ومن هنا تلك الاهمية الكبرى التى اعلقها على شخصه . ولقد ادلى الى من قبل بمعلومات قيمة

كان من شأنها ان تشير الى الجريمة وتعمل على دفعها قبل وقوعها .. أكثر مما تؤدى الى معاقبة المجرمين بعد أن تفوت الفرصة . وكان يحدوه الى ذلك أحيانا ميل الى ممارسة الخير . كما كنت استدرجه الى ذلك أحيانا أخرى بمبلغ من المال أرسله اليه بين وقت وآخر بطرق غريبة . ولو كان لدينا مفتاح هذه الرسالة لوجدنا فيها معلومات من جنس ما أذهب اليه .

وبسط هولمز تلك الرقعة فوق أحد الاطباق . فنهضت من مكانى وانحنيت فوقه واجلت بصرى فى تلك الكتابة الغريبة فاذا بها كما يأتى :

٥٣٤ ع ٢ ١٣ ١٢٧ ٣٦ ٣١ ٤ ١٧

٢١ ٤٠ دوجلاس ١٠٩ ٢٩٣ ٥ ٣٧

برلستون ٤٦ برلستون ٩ ١٢٧ ١٧١

ـــ ما الذى تستخلصه منها يا هولمز ؟

ـــ يلوح انها رسالة سرية يرمى بها كاتبها الى تدوين بيانات سرية .

ـــ ولكن ما فائدة الرسالة الشفرية هذا اذا لم يكن مفتاح حلها تحت أيدينا ؟

ـــ لا فائدة على الاطلاق ..

على أن شرلوك هولمز استطرد قائلا :

ـــ لست ارتاب فى انها ترمز الى كلمات منقولة عن كتاب

ما . وسأظل عاجزا عن فهمها حتى اهتدى الى كنة ذلك الكتاب .

ـ ولكن ما شأن كلمتى « دوجلاس وبرستون » ؟

ـ هما كلمتان غير موجودتين فى صفحة الكتاب الذى يشير اليه .

ـ ولماذا لم يدلك على هذا الكتاب ؟

ـ ليس من الفطنة يا عزيزى أن تضع الرسالة الشفرية ومفتاحها فى غلاف واحد . لانها ان وقعت فى غير يد المرسل اليه ضاعت الفائدة منها . لقد أزف ميعاد البريد . واننى أتوقع ان تصلنا رسالة ثانية توضح ما خفى علينا أو ان يأتينا نفس الكتاب الذى تشير اليه هذه الارقام .

وان هى الا برهة وجيزة حتى تحقق حساب هولمز . اذ وافانا الخادم بيلى بالرسالة التى كنا نترقبها .

وقال هولمز وهو يفض غلافها :

ـ ان خط الرسالتين واحد .

وما كاد يبسطه امامه حتى استطرد مبتهجا :

ـ ثم انها موقعة هذه المرة .. هلم يا وطسن فأننا نتقدم باطراد .

على أنه لم يلبث حين اجال بصره فى محتوياتها ان عبس وقال :

ـ لقد خاب رجاؤنا يا وطسن واخشى ان كل ما توقعناه لا يعدو ان يكون سرابا خادعا . وفى يقينى ان ذلك الرجل

المدعو بورلوك قد خشى عاقبة الامعان فى الموضوع فتراجع .
واليك ما يقول :

« عزيزى مستر هولمز ..

« اننى لم أواصل السعى فى هذه المهمة فانها شـديدة الخطر الى حد كبير .. (انه) يرتاب فى . ولا اكاد اتردد لحظة فى الجزم بهذه الحقيقة . ولقد فاجأنى بغتة بعـد ان فرغت من كتابة عنوانك معتزما ان أبعث اليك بمفتاح الرسالة فاستطعت ان أخفيه بعد لاى .. ولو رآها حينذاك لكان موقفى منه هائلا عسيرا بيد اننى رأيت الشك مرتسما فى عينيه كأننى اطالع فى كتاب مفتوح . ورجائى اليك ان تحرق الرسالة الشفرية فانها والحال كذلك لن تحـدتك فتيلا » .

(فريد بورلوك)

جلس هولمز يفرك الرسالة بين اصابعه هنيهة وراح يحدق فى النار وهو مقطب الوجه . وما لبث ان قال :

ـ مهما يكن من شيء فقد يكون الامر على غير ما يذهب اليه وانما هو وهم المجرم الاثيم . ومادام يعلم فى دخيـلة نفسه أنه يخون صاحبه فليس غريبا ان يتوهم انه يرتاب فى أمره ..

ـ احسبك تشير الى الاستاذ موريارتى .

ـ نعم . هو لا سواه . فان أولئك القـوم لا ينعتونه بضمير الغائب الا وهم ينعتونه من دون الناس كافة . وما

من احد سواه يسيطر عليهم سيطرة مطلقة ..

— ولكن ما الذى يستطيع هذا الرجل ان يفعله ؟

— هذا سؤال دقيق يا وطسن . اما لو علمت إنه اكبر الرؤوس المفكرة فى أوربا بأسرها وان جيوش الشر بأجمعها تعاضده وتشد آزره .. اذن لادركت انه لا يعجزه شيء ولا تقوم دونه عقبـــة . ومهما يكن من شيء فان صديقنا بورلوك قد استولى عليه فزع اخرجه عن رشده . قـارن بين خط الرسالة وخط الغلاف وهو الذى يقرر لنا أنه قد كتبه قبيل تلك الزيارة المشئومة تجـد ان هذا قد خطته يد ثابتة والآخر لا يكاد يقرأ ..

— وما الذى حمله على الكتابة ثابتة وقد وكان فى وسـعه ان يتفض يديه من هذه المسألة .. ؟

— ذلك لانه خشى ان اسعى الى الوقوف على اخباره فأزج به فيما لا يحب ..

وتناولت الرسالة الشفوية وشرعت أتأملها قائلا :

— انني لا أكاد املك صوابى حين افكر ان هذه الرقعـة قد تضم بين سطورها سرا أمينا لا سبيل الى النفوذ الى باطنه .

دفع شرلوك هولمز طعام الافطار من امامه دون ان يتناول شيئا منه واشعل غليونه الذى لم يكن يفارقه كلما غاص فى تأملاته . وقال وقد اضطجع الى الخلف وارسل بصره الى سقف الحجرة :

ـ دعنا نستعرض هــذا اللغز فى ضوء العقل الخالص :
ان هذا الرجل يشير الى كتاب معين فلنجعل اذن هــذه النقطة قاعدة بحثنا . فهل من دلالة تهدينا الى كنة ذلك الكتــاب ؟

ـ كــلا ..

ـ من المحقق ان المسألة ليست غامضة الى هذا الحد . ان الرسالة الشفرية تبدأ بالرقم ٥٣٤ فما ضرنا لو فرضنا انه يشير الى رقم الصفحة التى يرمى اليها صــــاحب الرسالة .. ؟ اذن فقد علمنا ان الكتاب الذى نحن بصدده مجلد ضخم .. وهذه نتيجة طيبة على أى حال . ثم ماذا لدينا من الدلائل التى تهدينا الى طبيعة ذلك المجلد ؟ ان الرمز التالى هو ع ٢ . فما الذى تستخلص منه يا وطسن؟

فقلت على الفور : العامود الثانى .

ـ بديع جدا يا وطسن ! انك تتوقد ذكاء فى هذا اليوم. واذن فهانحن أولا ازاء مجلد ضخم صفحاته مقســـمة الى أعمدة مفرطة الطول .. بدليل ان احدى الكلمات كما هو مسطور فى الرسالة الشفرية هى الثالثة والتسعون بعــد المائتين . اترى اننا سنعجز عن متابعة البحث بعد ذلك ؟

ـ آخشى ذلك .

ـ انك تظلم نفسك حقا يا عزيزى وطسن . فلو كــان ذلك المجلد نادرا لارسله الى . لكنه لم يعمد الى ذلك وانما كان معتزما قبل ان تتقوض قصــور وآماله ان يبعث الى بالاثر الذى يهدينى الى المجلد على هذا الغلاف . كما يقرر

ذلك فى رسالته الاخيرة . واذن فهو يرى ان فى وسعى ان احصل على هذا المجلد دون كبير عناء . وبعبارة أخرى هو مجلد شائع تتداوله الايدى ..

— هذا كلام طيب ..

— أذن فقد حصرنا نطاق البحث فى مجلد ضخم صفحاته مقسمة الى أعمدة وهو شائع الاستعمال .

فصحت قائلا فى لهجة الظافر :

— الكتاب المقدس !

— ولكن هذا الكتاب لا يجدينا يا وطسن . قال واحدا من اتباع موريارتى لا يفكر قط فى إقتنائه . وفوق ذلك فان طبعات الكتاب المقدس متعددة وليس فى وسعه ان يجزم باتفاق طبعتين منها فى ترتيب الصفحات . من البديهى اذن ان جميع نسخ المجلد الذى نحن بصدده مطابقة بعضها لبعض . وهو يعلم علم اليقين أن صفحة ٥٣٤ من كتابه تطابق دون شك نفس الصفحة التى لدى ..

— لكن قليلا من الكتب ما ينطبق عليه هذا الوصف .

— اصبت . وهذا مما يمهد لنا سبيل الفوز . اذن فقد حصرنا بحثنا فى الكتب المتطابقة التى يستطيع كل امرىء ان يقتنيها ..

— التقويم السنوى ؟

— بديع يا وطسن .. وأكبر ظنى انك قد اصبت كبد الصواب . لنبحث فى تقويم « هويشكر » مثلا فانه شائع الاستعمال متطابق الصفحات مزدوج الاعمدة .

وتناول المجلد من فوق مكتبه ثم استطرد قائلا :
— ها هو ذا العمود الثانى من صفحة ٥٣٤ .. أكتب ما أملى عليك يا وطسن . الكلمة الثالثة عشرة هى « هنالك » وهى فاتحة مشجعة . الكلمة السابعة والعشرون بعد المائة هى « خطر » . بديع جدا يا وطسن ! دون ما أملى عليك .

ولقد تألقت عيناه من فرط الاهتمام وتوترت أصابعه النحيلة وهو يحصى الكلمات ثم أردف قائلا :

— (هناك خطر .. سوف .. بسبب .. عما .. قريب .. المدعو .. دوجلاس .. وهو .. موسر — يقطن — قصر .. برلستون .. بضاحية .. برلستون .. اكتم — شخصيتى) . ألست ترى معى ان للمنطق السليم اثارا باهرة يا وطسن ؟

فجعلت ادمن النظر الى تلك الرسالة الغريبة التى سطرتها باملائه على وريقة امامى . ولم ألبث ان قلت :

— يا لها من طريقة غريبة توسل بها للادلاء بما اراد !
فقال هولمز :

— بل هو على النقيض من ذلك قد قام بهذه المهمة على خير الوجوه . وعسير عليك حقا ان توفق الى العثور فى عمود واحد على كل الكلمات التى تؤدى بما يجول فى خاطرك من المعانى . ولا مناص من ان تترك للقارىء شيئا يقدح فيه زناد فكره . ومغزى هذه الرسالة واضح لا شبهة فيه . فاجعة تتحفز للانقضاض على رجل غنى يدعى دوجلاس

يقيم فى برلستون . ولعمرى انه لغز بذلنا فى حل معمياته مهارة تدعو الى الاعجاب .

وفيما نحن كذلك اذ فتح الباب ودخل الخادم يتقدم مستر (اليك مكدونلد) المفتش بدائرة بوليس اسكتلنديارد .

وابتسم هولمز حينما شاهد المفتش وقال :

ـ انك مبكر كالطير يا مستر ماكدونلد . هل وقعت جناية جديدة ؟

على ان المفتش لم يلبث ان راح يحـــدق فى ذهول الى الورقة التى دونت فيها الرسالة الغامضة وتركتها على المائدة ثم راح يتمتم قائلا :

ـ دوجلاس ! برلستون ! ما هذا يا مستر هولمز ؟ ان هو الا سحر ساحر ! من أين لك هذه الاسماء بحق الرحمن؟

ـ هذه رسالة شفرية توصلنا الى كشف غوامضها . هل تعرف هذه الاسماء ؟

فوقف المفتش يقلب بصره فينا وقد بدت عليه امـارات الدهشة . وما لبث ان قال : ان مستر دوجلاس قد وجد فى هذا الصباح مقتولا فى قصره ببرلستون ..

الفصل الثانى ـ شرلوك هولمز يتكلم

لم يتذهل شرلوك هولمز لهذا النبأ الخطير وانما بدت على وجهه امارات الرزانة والاهتمام وقال :

ـ هذا تطور كبير .

ـ يلوح لى انك لم تدهش منه يا مستر هولمز ..

ـ اننى قد اهتممت به يا مستر ماكدونلد ولكنى لم ادهش . لعمرك ماذا يدعو الى الدهشة والانذهال ؟ لقد وردتنى رسالة بلا امضاء من مصدر وثيق تنبئنى ان زيدا الخطر قد وقع حقا وان الرجل قد لقى حتفه .. فما الذى يدعو الى الدهشة فى هذا الامر ؟.

وراح هولمز يقص على المفتش فى ايجاز حديث الرسالتين . بينما جلس ماكدونلد مقطب الوجه ولم يلبث ان قال :

ـ لقد كنت معتزما أن اتوجه الى برلستون على الفور . وما جئتك الا لاستطلع رأيك فى مرافقتى أنت وصديقتك الدكتور وطسن . لكن يبدو لى الآن طبقا لما سمعته منك أنه خير لنا ان نبقى فى لندن .

فقال هولمز : اننى لا استصوب هذا الرأى ..

فصاح المفتش قائلا :

ـ دع عنك هذا القول يا مستر هولمز فان هو الا يوم أو بعض يوم حتى تصدر الصحف طافحة بمأساة برلستون ولكن هل هى جريمة غامضة حقا وقد تنبأ بها قبل وقوعها شخص يقيم فى لندن .. ؟ ما علينا يا صديقى الا ان نضع أيدينا على ذلك الرجل فينتهى كل شىء .

ـ لا ريب فيما تقول يا مستر ماكدونلد . ولكن كيف السبيل الى نيل هذا المدعو بورلوك .. ؟

فراح ماكدونلد يقلب الرسالة بين يديه وقال :

ـ انها مرسلة من كامبرول .. بيد ان هذا لا يساعدنا

مساعدة جدية . ثم انك تقول أن هذا الاسم مستعار واذن فليس لدينا ما نعتمد عليه اعتمادا صحيحا فى هذا الصدد. ألم تقل أنك كنت ترسل أليه نقودا ؟

ـ لقد ارسلت اليه مرتين ..

ـ وكيف كنت ترسلها ؟

ـ بتحويلها على مكتب بريد كامبرول .

ـ ألم تكلف نفسك عناء البحث عمن كان يطلبها ؟

ـ كــلا ..

فلاحت على وجه المفتش سمات الدهشة وقال : ولماذا ؟

ـ انني احرص ابدا على البر بوعدى . فلقد عاهــدته حينما كاتبني لاول مرة الا أحاول ان اقتفى أثره ..

ـ أتظن أنه يعمل لحساب شخص ما ؟

ـ بل أؤكد ذلك ..

ـ وان هذا الشخص هــو الاستاذ بوريارتى الذى طالما سمعتك تتحدث عنه ؟

ـ نعــم .

فابتسم المفتش وغمز باحدى عينيه وقال :

ـ لا آكتمك يا مستر هولمز اننا نظن فى اسكتلنديارد أنك تتحامل على هذا الاستاذ بغير حق . ولقد قمت بتحريات فى هذا الصدد فتبين لى أنه عالم موهوب لا غبار عليه .

ـ يسرنى انك توصلت الى تقدير مواهبه ..

ـ بل أن الانسان لا يستطيع الى انكارها سبيلا . لقــد

اعتزمت ان آراه بعد ان وثقت على رأيك فى شخصه . فزرته فى مكتبه وتحدثنا مليا فى شئون فلكية جمة فملك على لبى بسعة علمه ووفرة لحصوله . ولقد اعارنى كتابا لمطالعتـه لا اكتمك انه فوق مستواى العقلى على الرغم من اننى اصبت حظا وافرا من جامعة ابردين . وليس كثيرا على من كان فى مثل هيأته ان يطالعك بوجهه النحيف وشـعره الرمادى ولهجته الرزينة أن يصبح شخصية يشار اليها بالبنان .

فضحك هولمز وراح يفرك كفيه قائلا :

ـ هذا بديع أيها الصديق ماكدونلد . ولكن خبرنى بالله هل كانت الحجرة آلتى جرت فيها هذه المقابلة جميـلة التنسيق ؟

بل كانت آية فى حسن الذوق وجمال التنسيق ..

ـ وهل كان مجلسك منه امام مكتبه ؟

ـ هو ما تقول .

ـ وكانت الشمس مسلطة على وجهك بينما كان وجهـه فى ظل الحجرة ؟

ـ لقد كان الوقت مساء بيد ان ضوء المصباح كان مسلطا على وجهى .

ـ لا بد من هذا . ألم تلاحظ صورة معلقة فوق مقعـد الاستاذ ؟

ـ لقد علمتنى يا مستر هولمز الا ادع شيئا يفوق ناظرى . واجيبك اننى رأيت صورة تمثل فتاة مسندة رأسـها الى كفيها تطالع الناظر اليها بعينين ساحرتين .

ــ ان هذه الصورة من ريشـــة المصور جان بابتست جريز ..

فتململ المفتش قليلا . بينما اردف هولمز وقد شـــبك اصابع يديه واضطجع فى مقعده :

ــ جان بابتست جريز هذا فنان فرنسى تلألا نجمه فى سماء الفن زمنا طويلا .. وقد قام النقاد المحدثون يشيدون بذكره ويعززون رأى معاصريه فى عبقريته الفنية .

فاخلد المفتش هنيهة الى التفكير . وما لبث ان قال فى ســـأم :

ــ الا يحسن بنا ان نتحدث فى ..

فقاطعه هولمز قائلا :

ــ هذا ما نحن بسبيله . وان ما اقره لهو وثيق الصلة بما تدعوه قضـية برلستون .

فابتسم ماكدنالد ابتسامة فاترة ونظر الى مبتهلا وقال:

ــ اننى لا أكاد أقوى على متابعته وادراك مرامى أفكارك يا مستر هولمز . وكيف يتيسر لى بالله ان اربط هــــذه الحقائق المتباينة بعضها ببعض ؟ ثم هل من صلة بين ذلك الفنان المتوفى وبين مأساة برلستون ؟

فقال هولمز : لا ريب انك ستهتم بهذا الموضوع اذا علمت ان هذه الصورة التى رسمها جريز قد بيعت بمبلغ أربعين ألف جنيه . ثم لا ريب ان هذه الحقيقة ستبعث فى ذهنك سلسلة من الآراء والافكار .

وفى الحق لقد اصاب هولمز . اذ بدت على وجه المفتش امارات الاهتمام بينما أستطرد هولمز :

ــ وقد يحسن بى ان الفت نظرك الى ان مرتب الاستاذ لا يتجاوز سبعمائة جنيه سنويا كما هو ثابت من عـــدة مصادر وثيقة ..

ــ اذن كيف تسنى له أن يبتاع الصورة ؟

ــ ذلك هو محور الموضوع .. كيف تسنى له ذلك ؟

فقال المفتش :

ــ نعم . هذا عجيب حقا ! امض فى حديثك يا مســتر هولمز فان هذه مسألة طلية قد اثارت فضولى .

ابتسم هولمز لدى سماعه هذه العبارة وقال : ومأســاة برلستون ؟

فقال المفتش وهو يلقى نظرة على ساعته :

ــ لدينا وقت كاف .. فهناك مركبة تنتظرنى بالباب وفى وسعنا ان نصل الى محطة فيكتوريا فى عشرين دقيقة . والآن لنرجع الى حديث الصورة وصاحبها . اذكــر انك قررت امامى مرة انك لم تجتمع بالاستاذ موريارتى ..

ــ كلا لم اجتمع به قط .

ــ أذن كيف تتحدث عن مسكنه حديث العارف الخبير ؟

ــ لقد زرت مسكنه مرتين منتحلا اعذارا مختلفة لانتظاره. وكنت أنصرف كل مرة قبل ان يرجع. ولقد تجرأت فى زيارة ثالثة على ان اتصـــفح أوراقه فانتبهت الى نتائج لم أكن اتوقعها ..

ـ هل عثرت على شيء يدينه ؟

ـ كلا البتة . وهذا ما حيرني حقا .. ومهما يكن من شيء فلا ريب انك قد ادركت ان هذه الصورة تكشف عن غناه الوافر . فمن أين له هذا المال ؟ أنه لم يتزوج بعد . واخوه الاصغر ناظر محطة فى غرب انجلترا . كما ان مرتبه لايتجاوز هذه السبعمائة جنيه التي حدثتك عنها .. فكيف يتفق له ان يقتني صورة من ريشة المصور جريز ؟

ـ والنتيجة ؟

ـ النتيجة واضحة كالصبح لذى عينين .

ـ أتعنى ان له ايرادا ضخما وانه يحصل عليه من طريق غير مشروع ؟

ـ هو ذاك . وهنالك بالطبع أسباب أخرى تحملنى على الذهاب هذا المذهب وكلها تؤدى الى النتيجة السالفة . وانما ذكرت لك صورة جريز من دونها جميعا لانها واقعة تحت بصرك لا تكلفك شيئا من العناء ..

ـ الحق ان ما تقول يا مستر هولمز يبعث على الاهتمام والعجب . ولكن أفصح قليلا عن رأيك .. هل هذا المال يأتيه من طريق التزوير أو التزيف أو السرقة ؟

ـ ألم تسمع بجوناثان ويلد ؟

ـ كلا ..

ـ لقد كان جوناثان ويلد القوة المحركة التى كانت تدفع مجرمى لندن من وراء حجاب . وكان يبيعهم عصارة ذهنه

وخططه الشيطانية نظير خمسة عشر فى المائة يتقاضاها عن كل خطة يدبرها .. وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه والمسألة تتكرر بحذافيرها فى شخص موريارتى .

ـ لقد تصادف اننى اهتديت الى شخصية فرد من أهم

ـ حقا انك فريد عصرك فى هذا الامر يا مستر هولمز .

تضم فى سلكها عدداً كبيرا من مختلف طبقات المجرمين الذين يمارسون الوان المناكـــر والموبقات . واعنى به الكولونل سباستيان موران وكيله وساعده الايمن وهو كرئيسه لاتحوم حوله شبهة ولا يقع تحت طائلة القانون . افتدرى كم ينقده؟

ـ ذلك ما أحب أن أعرفه .

ـ لقد علمت بطريق الصدفة المحضة انه ينقده سنويا آلافا من الجنيهات لاستخدام ذكائه ومواهبه . وهو مبلغ ضخم يعطيك فكرة عن أرباح موريارتى وجسامة الاعمـــال التى يقوم بها . ثم هناك ناحية أخرى .. ذلك انى رحت يوما أتعقب الشيكات التى يســـد بها مشترياته فألفيته يسحبها من ستة مصارف مختلفة . فما الذى تستخلصه من ذلك ؟

ـ هذا أمر غريب بلا ريب .. ولكن ما رأيك أنت ؟

ـ أرى انه لا يحب ان يلغط الناس بشأن ثروته وانه لا يريد ان يقف أحد على مقدارها . ولا ريب عندى فى ان له حسابا جاريا مع عشرين مصرفا وان جل ثروته مودعـة فى الخارج فى بنك الكريدى ليونيه أو بنك الدتش . ونصيحتى

اليك ان تتفرغ عاما أو عامين لدراسة أخبار الاســـــتاذ موريارتى أن آتسع وقتك لذلك .

ولقد استحوذ هذا الحديث على لب المفتش حتى أنه لم يحفل بشىء آخر . على أنه لم يلبث ان فطن الى القضــية التي نحن بصددها فقال :

ـــ فلندعه وشأنه يا مستر هولمز .. فانك قد صرفتنا عن موضوعنا بأحاديثك الطلية . لكن الذى يهمنا حقا هــــو ما صرحت به من وجود صلة بين الاستاذ وبين هذه الجريمة .. الامر الذى استنتجته من الاخطار الذى وردك عن طريق بورلوك . أفلا يتبصر لنا ان نستنتج شيئا آخر يهــدينا في بحثنا ؟.

ـــ قد لا يتعذر علينا أن نكون رأيا عن الدوافع التى أدت الى ارتكاب الجريمة يا مستر ماكدونالد . ويؤخذ من قولك أنها جناية غامضة لم يوفق أحد حتى الآن فى بسط خفاياها . والذى يعن لى فى آلوقت الحاضر ان هناك دافعين متباينين . الاول ان موريارتى يسيطر على أعوانه بيد من حديد ويسن لهم أنظمة صارمة يسيرون بمقتضاها . وان العقاب الوحيد فى شرعته هو الموت الزؤام فرضنا ان القتيل فرد من أعوان ذلك المجرم الكبير وانه قد خانه فى شأن من الشئون فلم يكن بد من ان يحل به العقاب المقرر حتى يذيع بينهم جميعا ويردعهم عن سلوك هذا السبيل . وفى هــــذه الحالة علم براوك بهذا المصير الذى ينتظر صاحبه فبعث الى بالرسالة السفالة ..

- والثانى ؟

- والثانى أن موريارتى قد رسم خطا للاغارة على بيت القتيل بقصد السرقة . هل وقع شيء من هذا القبيل ؟

- لا اعلم ..

- اذا صح ذلك فانه ينفى الفرض الاول ويعزز الثانى . ولا استبعد قط أن يكون موريارتى قد استؤجر لهذا الغرض نظير نصيب معين من الغنائم أو فى مقابل ثمن دفع له سلفا . وسواء صح هذا أو ذاك أو كان هناك دافع آخر لم نهتد اليه بعد فان علينا ان نمضى الى برلستون لالتماس الحل الصحيح لهذه القضية . فليس موريارتى بالذى يترك وراءه فى لندن أثرا يرشد اليه ..

فصاح المفتش قائلا وهو ينهض من مقعده :

- اذن هيا بنا الى برلستون . يا الهى ! لقد مر الوقت كالبرق ولن اسمح لكما بأكثر من خمس دقائق تستعدان فى خلالها ..

فقال هولمز وهو ينهض لاستبدال ثيابه :

- تكفينا هذه الفترة يا مستر ماكدونالد ورجائى اليك ان تتفضل أثناء الطريق ببسط كل ما تعلمه عن هذه الجناية .

ولقد أفضى الينا ماكدونالد على عكس ما كنا نتوقع ببيانات لا تكاد تذكر . وأن بدا لنا معا سمعناه أن فى القضية من الجوانب البارزة ما يستدعى من صديقى أدق

العناية حتى لقد أشرق محياه وطفق يفرك يديه النحيلتين وهو يصغى الى تلك التفاصيل التى كان المفتش يقصها عليه ..

وكان المفتش بدوره يستند الى بيان ارسله اليه بقطار الصباح صديقه هويت ماسون مفتش البوليس المحلى هذا نصه :

« عزيزى المفتش ماكدونالد ..

« مرفق بهذه الرسالة الخاصة أمر رسمى بأن تتولى بنفسك تحقيق جناية برلستون . ورجائى اليك ان تبرق الى بموعد القطار الذى ستحضر به الى برلستون حتى اقابلك فى المحطة أو انتدب من ينوب عنى اذا حيل بينى وبين ذلك . هذه قضية غريبة فلا تتوان فى القدوم . واذا استطعت أن تستصحب مستر هولمز فلا تتردد . فانه سيجد ولا ريب أشياء تطابق ميوله ومشتهياته . ولعمرى لو لم تتمخض هذه القضية عن قتيل لحسبناها رواية مسرحية اعدت للتأثير على الجمهور .

وقال ماكدونالد بعد أن فرغ من تلاوة الرسالة :

ــ اما الامر الرسمى الذى يشير اليه فقد ورد فيه ان المدعو جون دوجلاس قد اصيب بطلق نارى فى رأسه فى منتصف الليلة الماضية وان الجريمة غريبة فى بابها تبعث على الحيرة والارتباك . هذا كل ما نعرفه فى الوقت الحاضر يا مستر هولمز ..

ـ اذن لندع الامر عند هذا الحد .. فشر ما يفسد علينا هذه المهنة التى نمارسها ان نندفع الى تكوين آراء سابقة لاوانها مستندين الى بيانات موجزة لا تفى بالغرض المقصود. وليس لدى ما أعتمد عليه الآن اعتمادا جديا سوى أمرين: أحدهما ذلك الدماغ الجبار الذى تتفجر منه ينابيع الشر وهو راض فى لندن .. والآخر ذلك القتيل المنطرح فى برلستون . وعلينا ان نلتمس أسباب الاتصال بينهما .

الفصل الثالث ـ فاجعة برلستون

فى الطرف الشمالي من مقاطعة سكس تقع قرية برلستون بمنازلها العتيقة .. لكن السنين الاخيرة لم تلبث ان جذبت اليها فريقا من الاغنياء أخذوا يشيدون بها « الفيللات » الجميلة . كما انشئت بها بضعة حوانيت لسد حاجات السكان المتزايدين ..

وتوجد على بعد نصف ميل من هذه القرية حديقة مترامية الاطراف يتوسطها قصر برلستون بأبراجه العديدة ونوافذه الضيقة .

ويحيط بهذا القصر خندقان اهمل الخارجى منهما فغاض ماؤه وجف بينما ظل الداخلى على حاله يتصل به مجرى صغير يشق القرية فيجدد مجاه على الدوام . وعرض هذا الخندق أربعون مترا ولا يتجاوز عمق الماء فيه ثلاثة أقدام .

ولبلوغ هذا القصر يتحتم على السالك ان يعبر قنطرة

متحركة تنزل فى الصباح فاذا اقبل الليل رفعت وبات القصر كأنه جزيرة منعزلة عما جاورها .. الامر الذى يمت بوثيق الصلة الى هذه المأساة التى شغلت سكان انجلترا بغوامضها وخفاياها .

ولقد ظل قصر برلستون مقفرا من السكان عدة أعوام حتى أوشك ان تمتد اليه يد البلى تطمس آثاره وتغير معالمه لو لم تنزل به أسرة دوجلاس وتتخذ منه مقرا لها .

وهذه الاسرة الصغيرة تتكون من شخصين هما : جون دوجلاس وزوجته . فأما رب البيت فقد كان يناهز الخمسين من عمره خشن الملامح ثاقب البصر ذا عينين رماديتين وبنية شديدة قد أحتفظ بكثير من فتوة الشباب ونشاطه . وكان يلوح عليه انه يملك ثروة طائلة قيل أنه جمعها من مناجم كاليفورنيا . كما كان يبدو جليا من خلال حديثه وحديث زوجته انه قضى شطرا من حياته فى أمريكا .

فضلا عن تلك المكانة الطيبة التى بلغها بين أهل القرية بكرمه وديموقراطيته فقد كان معروفا بالشجاعة والبسالة .

واما قرينته فكانت كذلك محبوبة لدى كل من عرفها . وهى انجليزية الاصل فاتنة الجمال هيفاء نحيلة القوام .. لقيت مستر دوجلاس أول مرة فى لندن وقد فقد زوجته الاولى فاقترن بها على الرغم مما يفصلهما من فوارق السن اذ كانت تصغيره بعشرين عاما على أقل تقدير . بيد ان هذا الفارق لم يكن من شأنه ان يعكر عليهما صفو حياتهما

العائلية . على ان فريقا ممن يعرفهما عن كثب لم يفته ان يلاحظ ان الزوجة شديدة التكتم لا تشير بشيء الى حياة زوجها الماضية . وان يكن مرجحا انها فى جهل من أمرها لا تلم بكثير من خفاياه . كما لاحظ بعضهم كذلك انها كانت تبدى قلقا شديدا اذا تغيب زوجها كثيرا أو تأخر عن موعد رجوعه الى القصر ..

وهناك شخص ثالث يدعى سيسل جيمس باركر .. كان يختلف كثيرا الى القصر فيجد من ذويه كل اكرام وترحاب. وهو انجليزى الاصل سلخ شطرا من حياته فى الديار الامريكية حيث تعرف بدوجلاس وقضى معه زمنا نعما فى خلاله بصداقة متينة . وهو أعزب فى الخامسة والاربعين من عمره . ولم يكن يقصر فى ابداء هذه الصداقة نحو زوجة صاحبه حتى كان الزوج يمتعض احيانا ويتأذى من هذه العلاقة ..

فحوالى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء اليوم السادس من يناير هرع مستر سيسل باركر الى مركز البوليس وقد اشتد به الانفعال فقرع الجرس بعنف واخطر الجاويش ويلسون بوقوع مأساة أليمة فى قصر برلستون . اذ وجد مستر جون دوجلاس صريعا مضرجا بدمائه . ثم عاد الى القصر ووافاه على الأثر ذلك الجاويش بعد ان أخطر الجهات المختصة بالحادث .

ولما وصل الشرطى ألفى القنطرة منبسطة فوق الخندق ورأى النور ينبعث من خلال النوافذ . ووجد أهل القصر

فى أشد حالات الحيرة لا يكادون يتماسكون من فرط الجزع وفى الحق قد اجتمع سائر الخدم فى البهو الكبير واختلط حابلهم بنابلهم . بينما وقف كبير الخدم مروعا لدى الباب يقلب كفيه من هول الفاجعة . ولم يكن بينهم من ظل محتفظا برباطة جاشه سوى سيسل باركر . وما عتم هذا حين رأى الشرطى ان فتح بابا قريبا من مدخل البهو وأومأ اليه أن يتبعه ..

وفى تلك اللحظة وصل الدكتور وود طبيب الناحية فدخل ثلاثتهم تلك الحجرة التى وقعت فيها الجريمة وتبعهم كبير الخدم عن كثب . وما لبث هذا الاخير ان اغلق الباب خلفه لكى يحول بين الخادمات وبين رؤية ذلك المشهد المروع .

كان القتيل ملقى على ظهره فى وسط الحجرة ممدود الاطراف يرتدى جلبابا وردى اللون يستر ثياب نومه وينتعل فى قدميه العاريتين حذاء منزليا . فتناول الطبيب مصباحا كان موضوعا على مائدة وانحنى فوقه . وما كاد يلقى نظرة عليه حتى أيقن أن لا فائدة من حضوره .

كان القتيل مصابا بجراح بليغة وعلى صدره بندقية ذات فوهة مزدوجة قد فصلت فوهتاها على بعد قدم واحد من الزناد . وقد تبين ان هذا السلاح قد سدد الى القتيل عن كثب وان العيار قد انطلق الى وجهه رأسا فنثر مخه نثرا . كما تبين ان الزنادين قد شدا معا بسلك واحد حتى ينطلق

المقذوف المذدوج فى آن واحد فيكون فعله ذريعا ماحقا .
وقال الشرطى وهو يحدق الى القتيل :
ـ سندع كل شيء على حاله حتى يصل رؤسائى .
فقال سيسل باركر :
ـ اننا لم نمس شيئا حتى هذه اللحظة . وكل ما تراه الآن قد بقي على حاله كما وقع عليه بصرى لاول مرة ..
فقال الشرطى وهو يبرز من جيبه مذكرة صغيرة : ومتى كان ذلك ؟
ـ عند منتصف الساعة الثانية عشرة . وكنت جالسا فى حجرتى قرب الموقد ولم اكن قد خلعت ثيابي فقرع سمعى صوت عيار نارى صدر خافتا كأنما حاول صاحبه ان يخفى صوته . فهرعت الى مصدر الطلق على الفور ولا احسبنى قد أستغرقت أكثر من دقيقة فى القدوم الى هنا ..
ـ هل كان الباب مفتوحا ؟
ـ نعم . وكان دوجلاس المسكين طريحا كما تراه الآن . وقد وجدت شمعة مضاءة على المائدة فأطأتها واضأت هذا المصباح .
ـ ألم تشاهد أحدا ؟
ـ كلا .. بل سمعت مدام دوجلاس تهبط السلم فى أثرى فرأيت ان أحول بينها وبين رؤية هـذا المشهد المروع .. واقبلت الوصيفة فصحبتها الى حجرتها تحت الحاحى . ثم اقبل (ايمس) كبير الخدم كذلك فهرعت ثانية الى هـذه الحجرة ..

ـ لقد بلغني ان القنطرة تظل مرفوعة طوال الليل .

ـ نعم . وقد بقيت كذلك حتى انزلتها بنفسي .

ـ اذن كيف تسنى للقاتل ان يلوذ بأذيال الفرار ؟ لا ريب ان الحادث ليس جريمة قتل وانما هو حادث انتحار .

ـ هذا ما عن لي لاول وهلة .. ولكن انظر ..

وازاح باركر الستار جانبا وكشف عن نافذة مفتوحة على سعتها واستطرد قائلا :

ـ انظر الى هذا ..

ـ انظر الى هذا ..

وادنى المصباح من حافة النافذة .. فبدت للعيان بقعة من الدم تشبه آثار حذاء وقال :

ـ ان شخصا مجهولا قد وطىء حافة النافذة وهو يخرج منها ..

ـ أتريد ان تقول أنه قد خاض ماء الخندق ؟

ـ نعـم ..

ـ ولكن ما دمت تقول انك بلغت الحجرة قبل مضى دقيقة بعد وقوع الجريمة فلا شك اذن ان القاتل كان يخوض الماء فى تلك اللحظة ..

ـ لا ريب فى ذلك . ولشد ما وددت لو انني هرعت الى النافذة وقتذاك .. لكن الستار كان يحجبها كما ترى واذن فلم افكر فى احتمال وجود أحد بالخندق . انى سمعت مدام دوجلاس قادمة الى هنا ولم يكن فى وسعى ان ادعها تدخل الحجرة فان المنظر كان شديد الهول .

وقال الشرطى وقد شغلته تلك النافذة المفتوحة .

ـ لئن سلمنا بفرار القاتل عن طريق هذا الخندق فكيف تسنى له ان ينسل الى داخل القصر ما دمل القنطرة قد ظلت مرفوعة طول الليل ؟

فقال باركر :

ـ هذا ما لا أقدر على فهمه .

فقال الشرطى : ومتى رفعت القنطرة أمس ؟

فقال ايمس : حوالى السادسة مساء .

فقال الشرطى : لقد سمعت انها ترفع عادة عند غروب الشمس . وهذا الوقت يطابق منتصف الساعة الخامسة فى هذا الفصل لا السادسة كما تقول .

فقال ايمس : لقد كان لدى مدام دوجلاس ضيوف مدعوون لتناول الشاى ولم استطيع ان ارفع القنطرة الا بعد انصرافهم .

فقال الشرطى : اذا صح ان القاتل قد اتى من الخارج فلا شك انه قد اجتاز القنطرة قبل السادسة وظل مختبئا داخل القصر حتى اتى مستر دوجلاس الى هذه الحجرة بعد الحادية عشرة ..

ـ هذا هو الصواب . وقد اعتاد مستر دوجلاس ان يطوف بأنحاء القصر كل ليلة قبل ان يأوى الى فراشه ليتأكد من اطفاء الانوار وهذا سر وجوده فى هذه الحجرة . ولما كان القاتل متربصا له فقد اطلق عليه النار وفر من النافذة

تاركا وراءه بندقيته . وهذا ما اراه من حـل ينطبق على ظروف هذه الجريمة .

ولمح الشرطى رقعة على الارض قـرب جثة القتيل . فتناولها ورأى مكتوبا عليها بالمداد هذين الحرفين : (و.ف) وتحتهما رقم ٣٤١ . فقال يسأل باركر :

ــ ما هذا ؟

فقال باركر وهو ينظر فى دهشة الى تلك الرقعة :

ــ اننى لم أرها من قبل .. لا شك ان القاتل قد تركها وراءه ..

فقال الشرطى وهو يقلبها بين اصابعه :

ــ ما معنى ! و . ف ٣٤١) ؟ الا يحتمل ان هـذين الحرفين يشيران الى اسم ما ؟ ما هذا الذى عثرت عليـه يا دكتور وود ؟

ذلك ان الطبيب عثر على مطرقة كبيرة الحجم دقيقـة الصنع ملقاة فوق البساط امام الموقد . وقال سيسل باركر وهو يشير الى صندوق به مسامير نحاسية موضوع على رف الموقـد :

ــ لقد كان مستر دوجلاس يغير وضع الصـور أمس . وقد شاهدته بنفسى واقفا على هذا الكرسى يعلق الصـورة الكبرى فى موضعها الحالى . هذا هو سر وجود المطرقة .

وشرع الشرطى يتفقد جوانب الحجرة واذا به يصيح وهو ينزع ستار النافذة جانبا : متى اسدل هذا الستار ؟

فقال ايمس : حينما اضيء القصر .. اى بعد الساعة الرابعة بقليل .

ونظر الجميع فاذا آثار حذاء ملطخ بالوحل تبدو للعيان تحت النافذة .. فقال الشرطى :

ـ لا ريب ان انسانا قد اختبأ فى هذا المكان ..

وأخذ الطبيب يفحص جثة القتيل بعناية ولم يلبث أن قال :

ـ ما هذه العلامة ؟ ايمكن ان يكون لها اتصال بالجريمة ؟

ذلك أنه شاهد على ذراع القتيل اليمنى رسما غريبا يمثل دائرة يتوسطها مثلث . واستطرد يقول وهو يدقق الفحص بمنظاره :

ـ أنه ليس وشما كالذى نعرفه . فلقد كوى الجلد بواسطة النار كما تكوى الماشية . ما معنى هذا !

فقال سيسل باركر : اننى لا أفهم معنى وان كنت قد شاهدته كثيرا على ذراع دوجلاس فى خلال السنوات العشر الماضية .

وفجأة صاح ايمس صيحة تنم عن دهشته واشار الى يد القتيل وقال وهو يلهث : لقد سلب القاتل خاتم الزواج من يده .

ـ خاتم الزواج ؟!

ـ نعم . فلقد كان سيدى يحمله فى خنصر يده اليسرى ويضع فوقه هذا الخاتم ذا الماسة الكبيرة التى تراها الآن .

واید باركر قول ايمس . فقال الشرطى :

ـ اتعنى ان خاتم الزواج كان تحت هذا الخاتم ذى الماسة الكبيرة ؟

ـ نعـم ..

ـ وان القاتل قد انتزع هذا الاخـير أولا ثم رده الى موضعه بعد ان انتزع خاتم الزواج ؟

ـ هو ما تقول ..

فهز الشرطى رأسه وقال :

ـ لا شك اننا ازاء قضية شديدة الغموض لا يفلح فيها الا بوليس لندن .

الفصل الرابع ـ غموض شديد

فى الساعة الثالثة صباحا وصل المستر هوايت ماسون مفتش بوليس ساسكس فى مركبة سريعة الى برلستون بناء على اخطار الشرطى ويلسون . ثم بعث بنبأ الجريمة الى دائرة بوليس اسكتلنديارد . وما كاد النهار ينتصف حتى كان بانتظارنا فى محطة برلستون . فلما غادرنا القطار راح يقول :

ـ الحق انها قضية غريبة يا مستر ماكدونلد . ولسوف يهرع الينا رجال الصحافة زرافات ووحدانا حينما يسمعون بها . وكل ما ارجوه الآن ان نتمكن من اداء واجباتنا قبلما يتطفل علينا الصحفيون ويطمسون ما لدينا من الدلائل والآثار .. وما اراني اذكر فيما عرض لى جريمة تماثل هذه فى غرابتها وغموضها . ولعمرى انك اواجد فيها يا مستر هولمز جوانب

تطابق ميولك ومنازع نفسك . وكذلك انه ايها الدكتور وطسن اذ لابد للاطباء من كلمة يقولونها فى هذا الصدد . ولقد احتجزت لكما حجرة فى فندق « وستفيل » وسيحمل الخادم ما لديكما من الحقائب . .

وان هى الا عشر دقائق حتى كنا جالسين فى حجرة الاستقبال بالفندق . وراح مستر هوايت ماسون يقص علينا نبأ الجريمة كما مر بالقارىء فى الفصل السابق . . وجلس ماكدونالد يدون بين فترة وأخرى ما يعن له من الملاحظات بينما أخذ هولمز يصغى الى الحديث باهتمام عميق . فلما انتهى قال :

— حقا انها قضية غريبة ولا اكاد اذكر مثيلا لها فى غرابتها . هل لديك مانع يا مستر هوايت ماسون من ذهابنا الى القصر فورا ؟ حسنا . هيا بنا اذن .

وغادرنا الفندق وسرنا فى طريق نسقت الاشجار على جانبيه ثم انعطفنا فبدا لنا ذلك القصر العتيق بقنطرته الخشبية وخندقه العريض وقد سكن ماؤه وتلألأ فى شمس الشتاء الفاترة كأنه زئبق رجراج .

سار هولمز الى حافة الخندق واسل بصره الى ما امامه . . ثم راح يفحص تلك الارض الحجرية وما يليها من اعشاب الحديقة وما لبث ان قال :

— هل ماء الخندق كدر دائما ؟

— نعم . . وهذه الكدرة ناجمة عما يجلبه المجرى من الطمى .

ـــ وما عمقه ؟

ـــ نحو القدمين عند الجانبين وثلاثة فى الوسط .

وجزنا القنطرة فاستقبلنا ايمس . . وكان المسكين ممتقع الوجه ينتفض من وهل الصدمة . والفينا الشرطى ويلسون قائما فى مكان الجريمة لا يغفــل لحظــة . . على حين ذهب الطبيب لشأنه .

وقال هوأيت ماسون : هل من جديد ايها الجاويش ؟

ـــ كلا يا سيدى . .

ـــ اذن فى وسعك ان تمضى الى منزلك فانك قد تحملت ما فيه الكفاية . . واذا شعرنا بالحاجة اليك ارسلنا فى طلبك . قل لكبير الخدم ايمس ان يظــل خارج الحجرة وأن يخطــر مستر سيســل باركر ومدام دوجلاس والوصيفة اننا قــد نحتاج اليهم عما قريب . والآن ايها السادة أرجو أن تسمحوا لى بأن ادلى اليكم بجوهر الآراء التى كونتها أول الامر حتى يغدو فى مقدوركم ان تصوا منهــا الى ما تريدون . .

فأعاره هولمز اذنا مصغية . فراح يقول :

ـــ ان اول سؤال نلقيه على انفسنا ايها السادة هو : هل هذه الجناية مسألة انتحار أم جريمة قتل ؟ فان كانت الاولى فلا مناص لنا من الاعتقاد بأن مستر دوجلاس نزع من اصبعه خاتم الزواج واخفاه فى مكان ما . وبعد ذلك هبط الى هذه الحجرة فى ثياب نومه فطبع على الارض خلف الستار آثار حذاء ملوث بالوحل حتى يوهم الناس بأن انسانا ما قد تربص له . . ثم فتح النافذة ولطخ حافتها بآثار دماء . .

فقاطعه ماكدونلد قائلا : فلنغفل هذا الفرض .

ــ هذا ما اراه كذلك . اذن فقد بقيت جريمة القتل . والمهم فى هذا الشأن هو ان نستوثق هل ارتكب هذه الجناية انسان من داخل القصر أو من الخارج ؟

ــ حسنا . حدثنا بتراءى لك .

ــ هناك عقبات جمة تقوم فى سبيل هذين الرايين . ومع ذلك لا مناص لنا من الاخذ بأحدهما . فاذا فرضنا أولا ان فردا أو أفرادا من داخل القصر قد اقترفوا هذه الجريمة فلا ريب انهم قد استدرجوا القتيل الى هذه لحجرة بعد ان ساد السكون فى انحاء القصر . وان لم يكن احد قد استسلم بعد لسلطان النوم . ثم استخدموا فى انجاز فعلتهم سلاحا غريبا ذا صوت جاد حتى يوقفوا من بالقصر جميعا على ما وقع . فهل هذا مما يستقيم مع المنطق ؟

ــ كلا ..

ــ حسنا .. ثم ان الجميع متفقون على انه لم تكد تمضى دقيقة على سماع الطلق النار حتى هرعوا الى مكان الجريمة . وكان سيسل باركر ــ على حد قوله ــ اسبقهم الى هذه الحجرة . فهل يعقل ان يكون المجرم قد تمكن فى اثناء هذه البرهة الوجيزة من ان يطبع آثار الاقدام خلف الستار وأن يفتح النافذة فيلوث حافتها بالدماء ثم ينتزع خاتم الزواج من أصبع القتيل الخ .. ؟ الحق ان هذا محال

فقال هولمز : انك تبسط رايك فى وضوح وجلاء يا مستر هوايت ماسون وانا امرن الى الاخذ بما تذهب اليه .

ـ حسنا . اذن فقد رجعنا الى الرأى القائل بأن المجرم قد اتى من الخارج .. فاذا كان ثمة اعتراضات تحول دون الاخذ بهذا الرأى فليس من العسير تذليلها . لقد انسل القاتل الى داخل القصر بين منتصف الخامسة والسادسة مساء . أعنى فى الفترة التى انقضت بين غروب الشمس ورفع القنطرة . ولما كان لدى ربة القصر فريق من الزائرين وكان الباب الخارجى مفتوحا فانه لم يجد شيئا يحول دون دخوله . فان سألتنى عن الباعث قلت لك انه قد فعل ذلك بقصد السرقة . فان لم يكن فاغلب الظن انه كان موتررا يريد الانتقام من القتيل . يؤيد هذا الرأى ان هذا الاخير قد قضى معظم حياته فى الديار الامريكية . كما ان البندقية من طراز امريكى . اما لماذا انسل الى هذه الحجرة دون غيرها فلانها أول مكان صادفه . ولقد اختبأ خلف الستار وظل كامنا فى موضعه حتى جاوزت الساعة الحادية عشرة .. وعند ذلك اقبل مستر دوجلاس فكانت بينهما مقابلة وجيزة لم تستغرق امداً طويلا .. فقد ذكرت لنا مدام دوجلاس انه لم تكد تنقضى بضع دقائق على انصراف زوجها من لدنها حتى قرع سمعها صوت الطلق النارى .

فقال هولمز : ان الشمعة تبين ذلك بجلاء .

ـ هـذا صحيح . فانه لم يحترق من هذه الشمعة سوى جزء صغير . ولا ريب انه قد وضعها على المائدة قبل ان يباغته القاتل والا كانت بالطبع قد سقطت الى الارض بسقوطه . وهذا يبين لنا انه لم يهاجم حالما دخل الحجرة .

ولمـا أتى مستر باركر الى هنـا بعد ذلك اضاء المصباح واطفأ الشمعة ..

ــ كل هذا جلى تمام الجلاء .

ــ حسنا . والآن فى وسعنا آن نرتب الوقائع على هـذه القاعدة .. ينفذ مستر دوجلاس الى هـذه الحجرة ويضع الشمعة فوق المـائدة فيبرز من خلف الستار انسان مسلح بهذه البندقية ويطلب منه خاتم آلزواج . والله يعلم لاى داع فعل ذلك . ولكن هكذا كان . فينزع دوجلاس الخاتم من اصبعه ويعطيه اياه . ولكن القاتل لا يلبث ان يطلق النـار على فريسته على هذا النحو المريع .. اما بدافع الخيانة والغدر واما لاشتباكهما فى صراع رهيب لا يبعد معه ان يكون القتيل قد امسك بتلك المطرقة التى وجدت فوق البسـاط ليدافع بها عن نفسه . ولمـا فرغ الجانى من التغلب على خصمه القى سلاحه وترك هذه الرقعـة الغريبـة المسطور عليها (و . ف ٣٤١) ثم فر من النافذة ومنها الى الخنـدق وقت ان كان سيسل باركر يهرول الى هـذه الحجرة على أثر سماعه صوت الطلق النارى .. فما رأيك فى هذا يا مستر هولمز ؟

فقال هولمز : استنتاج طيب . ولكنه غير مقنـع تمـام الاقناع .

فصاح ماكدونلد قائلا :

ــ فى وسعى آن ابرهن على ان القاتل قد ارتكب جريمته بطريقة تخالف ما قال به هوايت ماسون . والا فما معنى ان

يقطع على نفسه سبيل الفرار على هذا النحو ؟ نعم ما معنى ان يستخدم لتنفيذ غرضه بندقية ذات صوت مسموع فى حين آن السكون خير ملجأ يلوذ به ليركن الى الفرار ؟ هيا يا مستر هولمز فلم يبق الا ان تبدى لنا رأيك ما دمت تقول ان آراء مستر هوايت ماسون ليست مقنعة تمام الاقناع .

* * *

جلس هولمز اثناء هذا الحوار الطويل يصغى بعناية كبيرة الى كل كلمة تقال وجعل يدور بعينيه الحادتين فى ارجاء الحجرة وقد تجعد جبينه من فرط التفكير والم يلبث ان جثا قرب جثة القتيل قائلا :

ــ اود ان اقف على بعض البيانات قبل ان اكون لى رأيا قاطعا يا مستر ماكدونالد يا الهى ! أن هذه الجراح مروعة حقا . . ارجو ان تدعو ايمس على عجل . ايمس . لقد علمت انك شاهدت أكثر من مرة هذه العلامة الغريبة المرسومة على ذراع مستر دوجلاس . . أعنى الدائرة ذات المثلث . . ؟

ــ نعم يا سيدى . .

ــ لا شك انها احدثت الما شديدا حينما طبعت على الجلد فانها ولا ريب قد تمت بواسطة الكى . . والآن يا ايمس هانذ أرى قطعة صغيرة من المشمع ملصقة بفك مستر دوجلاس الاسفل فهل لاحظت ذلك وقت ان كان على قيد الحياة . . ؟

ـ نعم يا سيدى .. فقد جرح نفسه عندما كان يحلق ذقنه صباح أمس .

ـ أتعرف انه كان يجرح نفسه احيانا وهو يحلق .. ؟

ـ اعلم يا سيدى انه لم يقع له ذلك منذ زمن طويل ..

ـ كلام طيب .. وقد يحتمل أن هذا الحادث عرضى محض .. كما يحتمل كذلك انه وليد اهتياج أو انفعال عصبى .. مما يدلنا على انه كان يتوقع خطرا يحل به .. هل لاحظت فى تصرفاته امس شيئا غير عادى .. ؟!

ـ لقد خيل الى أنه كان منفعلا بعض الانفعال ..

ـ ها .. ! من المحتمل انه كان يتوقع هذا المصير من قال .. ها نحن اولاء قد تقدمنا قليلا فى بحثنا .. ويحسن بك يا مستر ماكدونالد ان تقوم بالاستجواب ..

ـ كلا يا مستر هولمز فانك خير من يتولى هذه المهمة ..

ـ حسن .. والآن فلننظر فى أمر هذه الرقعة المسطورة عليها (و . ف . ٣٤١) انها من ورق خشن .. فهل لديكم مثلها فى القصر .. ؟

ـ لا اظن ذلك ..

ـ سار هولمز الى مكتب بالحجرة وراق على قطعة من ورق النشاف قليلا مما تحويه المحابر التى رآها امامه وقال :

ـ لقد سطرت هذه الرقعة فى غير هذا المكان .. فانها مكتوبة بمداد احمر ومداد هذه المحابر اسود .. وفوق ذلك فقد خطها قلم غليظ بينما هذه الاقلام رفيعة هل تستطيع ان تستخلص فكرة من هذه الكتابة يا ايمس .. ؟

ــ كلا يا سيدى .

ــ ما رأيك يا مستر مالدكونالد .. ؟

ــ يلوح لى ان هــذه الرقعــة وكذلك الوشم المرسوم على ذراع القتيل يشيران الى ذراع احدى الجمعيات السرية ..

ــ حسنا سنتخذ هذا الرأى قاعدة لبحثنا ثم نرى الى أين يؤدى بنــا .. هنالك رسول لاحدى الجمعيات السرية ينسل خفية الى داخل القصر .. ويكمن لمستر دوجلاس ثم ينثر رأسه نثرا بهذا السلاح ويركن الى الفرار عن طــريق الخندق تاركا الى جانب القتيل رقعة لا يكاد ذكرها يرد فى الصحف حتى يعلم اعضاء الجمعية ان انتقامهم قد تم على خير الوجوه .. كل هذا لا غبار عليه .. ولكن ما البــاعث على استخدام هذه البندقية دون الاسلحة جميعا .. ؟

ــ هو ذلك ..

ــ وما سر الخاتم المفقود .. ؟

ــ نعم .. ما سر هذا الخاتم .. ؟

ــ وكيف لم يقبض على القاتل بعد .. ؟ لقد نيفت الساعة الآن على الثانية وفى وسعى ان اقول ان جميع رجال البوليس فى دائرة قطرها اربعون ميلا قد ظلوا منذ بزوغ الفجر حتى هذه اللحظة يفتشون عن انسان مبتل الثيــاب غريب عن هذه الناحية ..

ــ انك على حق فيما تقول يا مستر هولمز ..

ــ انهم لا محالة مهتدون اليه .. هذا اذا لم يكن قد ابدل

ثيابه أو كمن فى مخبأ قريب من هنا .. لكنهم لم يهتـدوا اليه . حتى هذه اللحظة ..

ـ سار هولمز الى النافـذة وشرع يفحص بمنظاره آثار الدم المطبوعة على حافتها وقال :

ـ من الجلى انها موطىء حذاء عريض الى درجة غريبة .. لكن يبدو لى من هذه الآثار المتوحلة المنطبعة خلف الستار انها ترجع الى حذاء منتظم لا استعراض فيه .. ومع ذلك فهذه الآثار الاخيرة غير واضحة تمام الوضوح .. ما هـذا الذى أراه تحت المـائدة .. ؟

فقال ايمس :

ـ اثقال كان مستر دوجلاس يستعين بهـا على تمـرين عضلاته ..

ـ لكن امامنا ثقل واحد .. فأين الآخر .. ؟

ـ لا اعلم يا مستر هولمز .. فربما كان لديه ثقل واحد فقط .. وأنا لم ألق بالى الى هذا الموضوع منذ زمن طويل .

فقال هولمز فى أهتمام شديد :

ـ ثقل واحد .. ؟!

وطرق الباب فكف هولمز عن اتمام عبارته .. وقدم الينا رجل طويل القامة أسمر اللون حليق الوجه .. فلم اجـد مشقة فى ان اعرف من هيئته انه سيسيل باركر .. وقد راح يقلب فينا بصراً نافذا كأنما يستطلعنا أمرا وقال :

ـ معذرة لتطفلى عليكم .. لكن لابد لى ان احيطكم علمـا بما جد من الانباء ..

ـ هل قبض على احد .. ؟

ـ كلا لم يسعدنا الحظ بمثل هذه الفرصة .. بيد انهم عثروا على دراجة القاتل بعد ان خلفها وراءه .. هلموا لمشاهدتها فانها فى أحد ممرات الحديقة .

وقصدنا الى الحديقة .. فاذا الخدم يحيطون بدراجة ملطخة بالوحل .. كأنما سار بها صاحبها مسافة طويلة .. وعليها حقيبة صغيرة من الجلد بها أدوات لاصلاح ما يطرأ عليها من العطب . وقد عثر عليها القوم مخبأة بين الاشجار .. فقال المفتش :

ـ لا ريب انها ستغدو عونا كبيرا لنا ولئن تعذر لاعيننا ان نهتدى الى مخبأ القاتل فلن نجد عناء فى معرفة المكان الذى أتى منه .. لكن بحق السماء ما الذى حمله على ترك الدراجة .. ؟ وكيف تسنى له أن يركن الى الفرار بدونها .. ؟ يلوح لى يا مستر هولمز اننا لم نهتد بعد الى قبس من النور يضىء لنا ظلام هذه القضية ..

فقال هولمز :

ـ أصحيح ما تقول .. ؟ اننى لا أرى رأيك .. !

الفصل الخامس ـ ابطال المأساة

قال هوايت ماسون حينما عدنا الى القصر :

ـ هل بكم من حاجة الى مكتب القتيل .. ؟

فقال المفتش :

أما الآن فلا ..

ـ اذن لن يضيركم ان تسمعوا أقوال سكان القصر .. اننا سنحتل حجرة المائدة يا أيمس .. والآن اسرد علينا ما تعرفه ..

فراح ايمس يسرد علينا ما يعرفه في جلاء وضوح أقنعانا بصدق طويته .. فقال انه التحق منذ خمسة أعوام بخدمة مستر دوجلاس حينما هبط برلستون . وانه علم ان سيده غنى جمع ثروته فى الديار الامريكية .. وقد كان فى اليوم السابق لوقوع الجريمة فى تنبردج ليبتاع بعض الضروريات .. فلما عاد انس من سيده بعض القلق والانفعال كما لاحظ عليه دلائل الاهتياج وضيق الصدر مما يخالف عادته .. واستطرد ايمس فقال انه كان فى ليلة الجريمة فى الجناح الخلفى من القصر يرتب ادوات المائدة فسمع الجرس يقرع بعنف .. ولكن لم يطرق سمعه صوت الطلق النارى .. فان المطبخ كائن فى الجناح الخلفي وهناك حجر عدة وممر طويل تفصله عن بقية القصر .. الامر الذى يتعذر معه سماع شيء من هذا القبيل .. وقال ان الوصيفة هرعت كذلك الى خارج حجرتها لدى سماعها قرع الجرس العنيف .. وهرول كلاهما الى الداخل .. وما ان بلغا اسفل السلم حتى شاهدا مدام دوجلاس .. وقرر أيمس انه لم تكن تبدو عليها دلائل الجزع والانفعال .. ولما وصلت الى اسفل السلم اندفع مستر باركر من مكتب القتيل فاعترض سبيلها وتوسل اليها ان تعود ادراجها قائلا :

ـ بالله عودى الى مخدعك .. فقد قضى جاء التعس ..

ولن يجديه وجودك فتيلا عودى بالله .

وقبلت بعد شيء من الالحاح أن تعود الى مخدعها ومعها وصيفتها .. هذا .. ولم تبدر منها صرخة تدل على الجزع والتأثر .. اما ايمس ومستر باركر فقد رجعا الى المكتب ووجدا كل شيء كما رآه رجال البوليس فيما بعد .. ولم تكن تلك الشمعة موقدة فى تلك اللحظة وانما كان المصباح مضاء .. ولقد أطلا من النافذة بيد ان الظلام كان شديدا ولم يكن فى وسعهما ان يبصرا أو يسمعا شيئا .. فهرعا الى البهو وانزل أيمس القنطرة وهرول مستر باركر ليخطر البوليس ..

ذلك موجز ما ادلى به ايمس ..

وعقبته مدام « الين » الوصيفة فكان قولها فى كثير من جزئياته مؤيدا لما قرره زميلها .. اذ قالت انها كانت تتأهب للنوم فى حجرتها الكائنة على مقربة من الجناح الامامى للقصر حينما طرق سمعها دوى الجرس .. وقالت ان ضعف سمعها هو الذى حال دون سماعها الطلق النارى .. ومهما يكن من أمر فان حجرة المكتب فى مكان ناء عن القصر مما يتعذر معه وصول الصوت اليها .. ثم قررت أنها سمعت قبل أن ينفذ الى اذنها دوى الجرس بنصف ساعة تقريبا صوتا خيل اليها انه صوت اغلاق احد الابواب .. على انه حالما هرع أيمس الى مدخل القصر رافقته من فورها .. وهنالك رأيا مستر باركر خارجا من حجرة المكتب ممتقع اللون بادى التأثر والانفعال .. ولقد شاهداه يعترض سبيل مدام

دوجلاس حيث كانت تهبط السلم وراح يتوسل اليها ان تعود أدراجها .. فأسرت اليه كلاما لم يستطيعا فهمه .. وحينئذ طلب منها — أى من مدام الين — ان ترافقها الى مخدعها وتمكث الى جانبها .. فامتثلت لقوله واصطحبتها الى مخدعها حيث اخذت تبذل قصارى جهدها فى تعزيتها والترفيه عنها .. وقد اصابها انفعال شديد وراحت ترتجف من قمة رأسها الى اخمص قدميها .. بيد انها لم تبد اية محاولة للنزول الى مكتب القتيل وانما تهالكت الى جانب الموقد وأسندت رأسها الى كفيها وانقضى الليل ومدام الين لاتفارقها ثم ختمت شهادتها بقولها عن بقية الخدم انهم كانوا نياما فى اقصى جناح من القصر ولم يستيقظوا الا قبيل وصول رجال البوليس .. وفى رأيها انهم لم يسمعوا شيئا ما ..

وتلاها مستر باركر فقال انه ليس لديه سوى مسألة واحدة يحب أن يضيفها الى ما ادلى به الى رجال البوليس .. ذلك انه مقتنع مما شاهده من آثار الدماء المطبوعة على حافة النافذة ان القاتل فر عن طريقها .. هذا الى انه لم يكن من سبيل آخر للفرار ما دام الكوبرى قد ظل مرفوعا طوال الليل .. فأما أين ذهب القاتل .. ولماذا لم يصطحب معه دراجته ان كانت له حقا .. ؟ فهذا ما لا يستطيع تفسيره .. ومن المحال طبعا أن يكون قد لقى حتفه فى ماء الخندق الذى لا يجاوز عمقه فى أى موضع منه ثلاثة أقدام .. ثم استطرد قائلا : انه قد كون لنفسه فكرة واضحة عن هذه الجريمة لا يرى بأسا من سردها .. فقد كان دوجلاس رجلا

كتوما يحب الصمت .. وكانت فى حياته جوانب غامضة لم يبح قط بشىء عنها .. ولقد نزح فى صدر شبابه من ايرلنده الى امريكا حيث اصاب ثروة طيبة ثم التقى به باركر لاول مرة فى كاليفورنيا .. وهنالك اسسا شركة لاستغلال المناجم نجحت اعمالها ايما نجاح وادرت عليهما ارباحا وفيرة .. بيد أن دوجلاس لم يلبث أن باع نصيبه فجأة وارتحل الى انجلترا .. وكان فى ذلك الحين قد فقد زوجته الاولى .. وما لبث باركر بدوره ان صفى حسابه وولى وجهه شطر انجلترا حيث تلاقيا ثانية وجددا عهود الصداقة القديمة .. وقد استشف من حال صديقه ان ثمة خطرا يلاحقه اينما ذهب . وطالما عزا باركر سبب ارتحاله الفجائى عن كاليفورنيا والتجائه الى هذا القصر الهادىء المنعزل الى ذلك الخطر دون سواه .. وكانت تبدو من دوجلاس أحيانا عبارات جعلته يعتقد ان هناك جمعية سرية تجد فى مطاردته ولن تنثنى عنه حتى توردة موارد الهلاك .. وقال ان القتيل لم يطلعه قط على كنه هذه الجمعية وكيف استوجب نقمتها .. وكل ما يستطيع استنتاجه هو أن لتلك الرقعة التى وجدت بجانب القتيل علاقة بهذه الجمعية ..

وهنا سأله المفتش ماكدونالد قائلا :

ـ كم قضيت مع دوجلاس فى كاليفورنيا ؟

ـ خمسة اعوام ..

ـ ألم تقل الآن انه كان أعزب ؟

ـ كلا .. بل تزوج ثم توفيت زوجته .

ـ ألم تقف قط على جنسية زوجته الاولى .. ؟

ـ لقد أخبرنى مرة ان ألدم السويدى يجرى فى عروقها .. ثم اننى شاهدت صورة لها فرأيتها على حظ وافر من الجمال .. وقد ماتت بالتيفوئيد قبل مقابلتى له بعام ..

ـ الا تعرف ان كان ماضيه يرتبط ببقعة معينة من بقاع امريكا .. ؟

ـ لقد سمعته يتحدث عن شيكاغو .. وكان يلم بتلك المدينة الماما كبيرا .. اذ قضى شطراً من حياته يعمل فى ربوعها وأخص بالذكر منها مواطن ألتعدين ..

ـ الا تظن انه كان عضوا فى جمعية اجرامية .. ؟

ـ كلا البتة .. وما رأيت فى حياتى رجلا أحرص منه على التمسك بأسباب الاستقامة ..

ـ الم يستلفت نظرك أثناء اقامتك معه فى كاليفورنيا شذوذ فى نمط معيشته ؟

ـ لقد كان أحب شىء الى نفسه أو يعكف على عمله فى مناجمنا كما كان يتحاشى جهده ان يختلف الى المواطن المأهولة .. وهذا ما حملنى على الظن بأن ثمة اناسا يتعقبون أثره .. وما لبث الظن ان اصبح يقينا حينما ارتحل فجأة الى أوربا .. وفى رأيى انه قد توسم شيئا خفيا حمله على هذا الرحيل الفجائى .. فانه لم ينصرم اسبوع على سفره حتى وفد علينا فريق من الرجال يستقصون أخباره ..

ـ ومن أى طراز كانوا ؟

ـ لقد كانت آمارات الخشونة والغلظة تلوح عليهم بأجلى بيان .. ولما طلبوا الى ان أدلهم على مكانه اخبرتهم أنه قد ارتحل الى اوربا وانني لم اقف له على أثر .. وكان ميسورا لكل انسان ان يرى انهم يتربصون به ويريدون به شرا ..

ـ هل كانوا من كاليفورنيا ؟

ـ ليس فى وسعى ان آميز أهل كاليفورنيا عن سواهم .. وكل ما استطيع قوله انهم كانوا امريكيين من غير طبقة المعدنين .. وفى الحق لقد تنفست الصعداء حينما انفضوا عنى وكروا على اعقابهم ..

ـ هل وقع هذا الحادث منذ ستة أعوام .. ؟

ـ بل حوالى سبعة ..

ـ اذن فلا شك ان حسابه مع اولئك الرجال يرجع تاريخه إلى احد عشر عاما على أقل تقدير .. ما دمتما قد قضيتما خمس سنوات فى ربوع كاليفورنيا ..

ـ هو ذاك ..

ـ لا شك انه ثار متأصل .. ذلك الذى يظل حيا طوال هذا الزمن ..

ـ بل لقد كان بمثابة سحابة قاتمة تظلل سماء حياته ..

ـ هب أن انسانا أحس بخطر يحدق به وكان على بينة من كنهه ومصدره .. أفلا تظن انه يفزع الى البوليس ملتمسا منه الحماية .. ؟

ـ قد لا يبعد أنه كان ضربا من الخطر الذى لا تجدى معه

اية حماية .. ثم آن هنالك ملاحظة لا ارى مناصا من اطلاعكم عليها .. وتلك هى ان دوجلاس كان ابدا متقلدا سلاحه ولم يكن مسدسه يفارق جيبه قط .. بيد انه لنحس طالعه كان يرتدى فى تلك الليلة جلباب نومه .. وترك مسدسه فى حجرة النوم .. وحسب انه كان يظن نفسه فى مأمن من كل سوء ما دامت القنطرة مرفوعة ..

ـ احب آن اقف بالتدقيق على التواريخ التى ذكرتها فى سياق كلامك .. ؟ الم تقل ان دوجلاس زايل كاليفورنيا منذ ستة أعوام وانك جئت على أثره فى العام التالى ؟

ـ بلى ..

ـ ثم انه تزوج منذ خمسة اعوام .. واذن فلا ريب انك قد لحقت به وهو على أهبة الزواج ..

ـ أجل .. لقد لحقت به قبل زواجه بشهر وكنت شاهده ..

ـ هل كنت تعرف مدام دوجلاس قبل زواجها .. ؟

ـ كلا .. ولقد لبثت بعيدا عن انجلترا رهاء عشرة أعوام ..

ـ لكن مما لا ريب فيه انك خالطتها عن كثب منذ ذلك الحين ..

فألقى باركر على المفتش نظرة قاسية وقال :

ـ بل لقد خالطت زوجها عن كثب منذ ذلك الحين .. ولئن كنت قد احتككت بها فان المرء لا يسعه ان يزور صديقا

له فى بيته دون ان يتعرف الى زوجته .. فاذا خيل لك الوهم ان ثمة علاقة ...

— اننى لا آندفع مع الظنون يا مستر باركر .. وارى من واجبى ان اتحرى كل ما يمت بصلة الى هذه القضية .. بيد انى لا ابغى احراجك فى شىء ..

فقال باركر فى لهجة الغاضب :

— ان من آلاسئلة ما يبعث على الحرج .

— نحن نبغى الاهتداء الى الحقيقة المجردة . ومن مصلحتك بل من مصلحة الجميع آن نهتدى اليها ونزيح عنها ما يغشاها من لبس أو غموض .. فخبرنى اذن .. هل كان مستر دوجلاس يستريح الى مصادقتك لزوجته .. ؟

وهنا امتقع وجه باركر وأطبق يديه القويتين بحركة عصبية وراح يهدر قائلا :

— اعلم آنه لا حق لك فى القاء سؤال كهذا .. ثم هل من صلة بين هذا آلسؤال وما تقومون بتحقيقه .. ؟

— اننى اكرر عليك هذا السؤال ..

— حسنا .. وانا ارفض الجواب ..

— صحيح انه فى وسعك ان ترفض . لكن ينبغى آن تعلم ان رفضك الاجابة يدل على آن لديك ما تحرص على اخفائه ..

وقف باركر هنيهة صامتا وقد علت وجهه سحابة قاتمة واسبل أهدابه السوداء مخلدا آلى التفكير العميق .. وما لبث ان أشرق محياه بابتسامة وراح يقول :

ـ حسنا .. اننى اعلم ايها السادة انكم تقومون بما يفرضه عليكم الواجب . وانه لا حق لى فى ان احول بينكم وبين تريدون .. وكل ما اسألكم اياه هو الا تزعجوا مدام دوجلاس فى هذا الصدد . فان ما بها الآن لا يترك زيادة لمستزيد . وقد لا اجد غضاضة فى أن اخبركم ان دوجلاس المسكين كان نفريسة لغيرة .. وهى كل ما نستطيع ان نأخذ عليه من الهنات .. وتفصيل ذلك انه كان شديد التعلق .. حتى انه ليندر ان ينطوى فؤاد على مثل ما كان يطوى لى من المودة والاعزاز .. ثم انه كان يحب زوجته ويكرس نفسه لارضائها .. وكان يسألنى ابدا ان اختلف الى بيته .. وطالما بعث الي بالرسائل يستقدمني اليه .. ومع ذلك فانه لم يكن يرانا مرة نتجاذب أطراف الحديث أو يستشف بيننا شيئا من التوافق الا اجتاحته نوبة من الغيرة تفقده صوابه وتجعله يهدر بعبارات جارحة .. ولطالما آليت على نفسى الا طأ بيته لهذا السبب .. فكان اذا انس منى هذا العزم بعث الى برسائل تفيض ندما واستعطافا مما لم يكن يسعنى معه الا ان أنزل على رجائه .. ولكن كونوا على تمام اليقين ايها السادة آن زوجته كانت مثال التفانى والوفاء لعهده .. وأن اخلاصى له كان يفوق كل حد ..

القى باركر هذه العبارات بحرارة وانفعال .. ومع ذلك لم يشأ المفتش ماكدونالد ان يغير مجرى الحديث بل قال :

ـ لعلك تعلم أن خاتم الزواج قد انتزع من أصبع القتيل .. ؟

فقال باركر :

ـ هذا ما يبدو لى ..

ـ ماذا تعنى بقولك (يبـــدو) وانت تعـلم هـذا علم اليقين .. ؟

فلاحت على الرجل امارات الحيرة والتردد .. وما لبث ان قال :

ـ أردت ان اقول انه ميسور لكل انسان ان يفهم ان القتيل هو الذى نزع الخاتم بمحض رغبته ..

ـ الا ترى ان مجرد اختفاء الخـاتم .. بغض النظر عن الفـاعل .. يحمل على الظن بوجود علاقة بين الزواج وبين هذه الجريمة .. ؟

فهز باركر منكبيه العريضين واجاب قائلا :

ـ لا أستطيع ان ارى شيئا مما تذهبون اليه .. لكنكم اذا كنتم ترمون الى القول بأن هناك علاقة بين الجناية وبين سلوك هـذه السيدة (وتألقت عيناه لحظة ولكنـه سرعان ما سيطر على عواطفه واسـتطرد) فثقوا انكم قـد تنكبتم الصواب .

فقال ماكدونالد :

فقال ماكدونالد ببرود :

ـ لا أحسبنى الآن بحاجة اليك ..

وهنا قال شرلوك هولمز :

ـ هنالك مسألة احب أن استوضحك اياها .. ألم تقرر

انك حينما دخلت حجرة القتيل شاهدت شمعة مضاءة فوق المائدة .. ؟

— بلى ..

واستطعت ان تدرك على ضوء هذه الشمعة ان ثمة جريمة مروعة قد وقعت .

— هو ذاك ..

— فقرعت الجرس تطلب المعونة .. ؟

— نعم ..

فأتتك النجدة على الفور .. ؟

— فى خلال دقيقة او نحوها ..

— لكن القوم حين هرعوا اليك الفوا الشمعة مطفأة وشاهدوا المصباح مضاء افلا تجد فى هذا شيئا من الغرابة .. ؟

فبدت على باركر امارات الحيرة ثانية ولم يحر جوابا . بيد انه لم يلبث أن قال :

— كلا لا غرابة ولا شبهها .. فقد كان أول همى حينما رأيت الشمعة ترسل ضوءا ضعيفا أن أحصل على ضوء أقوى واذن فما كدت المح المصباح فوق المائدة حتى أضأته ..

— ثم اطفأت الشمعة .. ؟

— هو ذاك ..

واكتفى هولمز بهذه الاسئلة .. وعلى اثر ذلك خرج باركر

وهو يلقى علينا نظرة هادئة خيل الى ان فيهـا شـيئا من التحدى والاستفزاز .

ولقد بعث المفتش ماكدونالد ببطاقة الى مدام دوجلاس يخبرها انه يود ان يراها فى حجرتها الخاصة . فكان جوابها انها ستقابلنا فى حجرة المـائدة ..

فلما اقبلت شاهدنا صبية هيفاء تناهز الثلاثين من عمرها .. وسيمة المحيا .. تطالعك منها امارات الرزانة وضبط النفس وقد كنت اتوقع ان ارانى ازاء سحنة ترتسم عليهـا اثار الاسى والفجيعة .. نعم ان الناظر الى طلعتها كان يرى شحوبا وامتقاعا .. شأن كل انسان آصيب بصدمة شديدة .. بيد انها كانت رابطة الجأش مسيطرة على أعصابها الى حد كبير .

والقت علينا نظرة مفعمة بالحزن والاستفسار .. وما عتمت ان قالت :

ــ الم تقفوا على شيء بعد .. ؟

وقد خيل الى حينما ألقت هذا السؤال ان نبراتها تنم عن الخوف أكثر مما تشف عن الامـل والرجاء .. فأجابهـا ماكدونالد :

ــ لقد اتخذنا كل اجراء ممكن يا مدام دوجلاس .. وارجو ان تطمئنى الى اننا لن ندع شيئا يغيب عنا ..

فقلت فى صوت هادىء :

ــ كل ما ارجو الا تدخروا جهدا ولا مالا فى سبيل الاهتداء الى حل ..

ـ الا تستطيعين أن تفضى الينا بشىء يلقى شعاعا من النور على مهمتنا .. ؟

ـ اخشى اننى لن استطيع ذلك .. ولكنى على استعداد لاطلاعكم على كل ما اعلم ..

ـ لقد انبأنا مستر سيسل باركر أنك لم تبصرى فى الواقع ... انك لم تطأى أرض الحجرة التى وقعت فيها المأساة .

ـ كلا .. فقد ردنى على اعقابى وأنا أهبط السلم وتوسل الى أن أعود الى مخدعى ..

ـ لا ريب فى ذلك .. ثم أنك قد سمعت صوت الطلق النارى وهرعت من فورك الى أسفل القصر ..

ـ لقد التففت بردائى ثم نزلت ..

ـ كم مضى من الوقت بين سماعك صوت الطلق النارى والتقائك بمستر بارا ؟

ـ حوالى دقيقتين .. وعسير حقا على المرء ان يلقى باله الى الزمن فى مثل هذه الظروف العصيبة .. ولقد راح يتوسل الى الا أذهب الى حجرة القتيل وأكد لى ان وجودى لن يجديه فتيلا .. ثم جاءت الوصيفة وقادتنى الى مخدعى .. لقد مر كل ذلك كأنه حلم رهيب ..

ـ هل فى وسعك ان تخبرنا عن المدة التى قضاها زوجك فى حجرة المكتب حتى سماعك صوت الطلق النارى .. ؟

ـ كلا .. فاننى لا أعرف متى ترك حجرته الخاصة ونزل

الى الدور الارضى وكان من عادته أن يطوف بأرجاء القصر كل ليلة حتى يطمأن الى ان النار لم تشب فى أية ناحية من نواحيه .. وهو فيما أعلم ضرب من الوهم كان يلازمه بصفة خاصة ..

ـ لقد وصلنا الى النقطة الحساسة يا مدام دوجلاس .. فخبرينى .. هل تعرفت بزوجك فى انجلترا فقط .. ؟

ـ نعم .. وقد تزوجنا منذ خمسة أعوام ..

ـ ألم تسمعيه قط يتحدث عن أشياء وقعت فى أمريكا وكان يتوقع ان يصيبه منها خطر داهم .. ؟

فقالت وقد اخلدت هنيهة الى التفكير العميق :

ـ بلى .. كنت اشعر دائما ان ثمة خطرا يلاحقه اينما ولى وجهه .. وكان يرفض ان يطلعنى على كنهه .. لا لانه كانت تعوزه الثقة فى شخصى ـ فالله يعلم اننا كنا نتبادل الحب والاخلاص ـ وانما رغبة منه فى أن يبعد عنى أسباب القلق والانزعاج .. نعم لقد كان يخشى اذا هو اطلعنى على ما هنالك ان استسلم للهم والتفكير .. ولذلك فضل ان يلجأ الى السكوت ..

ـ وكيف عرفت اذن أن ثمة خطر يهدده .. ؟

فأشرق محياها بابتسامة وقالت :

ـ هل يمكن أن يخفى على المرأة التى تحب زوجها شىء من أمره أو سر مدفون ظل يطوى الضلوع عليه طوال حياته؟ لقد توصلت الى معرفة ذلك بطرائق عدة عرفت ذلك من

رفضـــه أن يطلعنى على جوانب خاصة من ماضى حيـاته في الديار الامريكية .. ومن احتياطات خاصة كان يتشبث بها وعبارات معينة كانت تفلت منه .. ومن تحاشـيه ان يقابل أحداً من الطارقين .. كل ذلك زادنى يقينا ان وراءه اعداء ألداء يطاردونه .. وأنه لا يفتأ يتحرز منهم ويأخـذ الاهبة لهم .. ولقد بلغ من اشفاقى عليه اننى كنت انزعج اذا ما تأخر يوما عن موعد رجوعه الى البيت .

فقال هولمز :

ـ هل لى ان أقف على تلك العبـــارات التى كانت تثير قلقك وريبتك ..

ـ كنت اذا ألححت عليه لمعرفة أسباب انزعاجه اجـابنى بهذه العبارات : (وادى الاهوال .. لقـد عشت فى وادى الاهوال .. وما زال ظله يلاحقنى ..) وكنت اسائله حينما يشتد عليه الامر الا تستريح من هذا الوادى .. ؟ فيجيبنى قائلا : (يخيل الى أحيانا أنه لا سبيل الى ذلك ..) .

ـ لا ريب انك قد استفسرته عمـا يعنى بقوله (وادى الاهوال) .. ؟

ـ أجل .. لقد فعلت ذلك .. بيد ان وجهه كانت تلوح عليه اذ ذاك أمارات الجد وكان يهز رأسه قائلا : (شــــر مستطير لمن قدر له ان يعيش بين جوانبه .. وادعو الله ان يقيك شر أهواله) .. وأنا موقنة انه واد حقيقى سلخ شطرا من حياته فى ربوعه .. واصابه فيه خطب جسيم .. وما عدا هذا فليس لى الى العلم به من سبيل ..

ـ ألم يذكر لك اسم أحد .. ؟

ـ بلى . فقد أصيب بحادث أثناء انهماكه فى الصيد منذ ثلاثة أعوام واستولت عليه حمى جعلته يهذى ويلفظ فى لهجة ملؤها الغضب والهلع باسم اذكر انه (ماكجنتى) أو الرئيس ماكجنتى .. فلما افاق وذهبت عنـــه الحمى سألته عمن يكون ماكجنتى هذا وأى ضرب من الرؤساء هو فأجــابنى ضاحكا : (احمـــد الله على أنه ليس برئيسي ولست من رجاله) وهذا كل ما استطعت الوقوف عليه منه .. ولكن هناك بغــير شك عـــلاقة بين الرئيس ماكجنتى وبين واى الاهوال ..

فقال المفتش ماكدونالد :

ـ هنالك مسألة أخرى أيتها السيدة . عندما التقيت بمستر دوجلاس فى لندن وتمت بينكما الخطبة .. هل وقع ذلك بعد ميول غرامية أو بدوافع أخرى خفية ؟

ـ كلا .. بل الصواب هو الامــر الاول .. ولم يشـــب خطبتنا أى غموض أو خفاء .

ـ ألم يكن له منافس فى خطبتك ؟

ـ كلا .. فقد كنت طليقة من كل قيد .

ـ لقد سمعت بلا ريب ان خاتم الزواج قد اختفى .. أفلا يثير ذلك فى نفسك شيئا ما .. ؟ لنفرض ان أحـــد أعدائه تعقبه واقترف الجريمة . فما الذى يحمله على نزع خاتم الزواج .. ؟

ولقد خيل الى أنها كادت تهم بالابتسام عندما سمعت هذا السؤال ولم تلبث ان قالت :

ـ الحق اننى لا استطيع ان أفهم الدافع .. والواقع ان الامر يبعث على أشد العجب ..

فقال المفتش :

ـ حسنا .. اننا لن نحتجزك لدينا أكثر من هـذا .. ونحن نأسف حقا على ما سببنا لك من العناء فى مثل هذا الظرف .. ومما لا ريب فيه ان هناك مسائل أخرى قد نحتاج الى رأيك فيها .. ولكننا سنبسطها لك اذا مست الحاجة ..

وقال ماكدونالد وهو يفكر بعد ان تركتنا وأغلقت الباب خلفها :

ـ انها بارعة الجمال .. ومما لا ريب فيه أن هذا الرجل المدعو باركر كان يقضى جانبا كبيرا من وقته تحت سقف هذا البيت .. ! وهو من الرجال الذين يأنس النساء فيهم جاذبية خاصة .. ثم انه قرر امامنا أن القتيل كان يغار منه وسر هذه الغيرة عند الله وعند هـذا الرجل ، ثم هنالك خاتم الخطبة وهو أمر لا نستطيع أن نمر به مر الكرام .. وان رجلا ينزع من أصبع ضحيته خاتم زواجه ... ماقول فى هذا يا مستر هولمز .. ؟

وكان صديقى هولمز قد اسند رأسه بين راحتيه واستغرق فى تفكير عميق .. وما لبث ان نهض من مكانه وقرع الجرس فلما أقبل ايمس قال يخاطبه :

ــ أين مستر سيسيل باركر يا أيمس ؟

ــ سأبحث عنه يا سيدى ..

وبعد هنيهة عاد كبير الخدم يخبرنا انه فى الحديقة فقال هولمز :

ــ أتذكر يا أيمس ماذا كان مستر باركر ينتعل فى قدميه حينما لحقت به فى المكتب فى الليلة السابقة .. ؟

ــ نعم يا مستر هولمز .. لقد كان ينتعل (شبشبا) ولما هم بالذهاب الى مركز البوليس استبدله بحذائه .

ــ وأين هذا (الشبشب) الآن ؟؟

ــ أنه لا يزال تحت أحد المقاعد فى البهو الكبير ..

ــ حسنا يا أيمس .. فانه يهمنا بالطبع ان نفرق بين آثار أقدام مستر باركر وبين الآثار التى تركها سواه ..

ــ هو ذاك يا سيدى .. وقد يكون لى ان اقول اننى لاحظت ان (الشبشب) ملوث بالدماء .. وكذلك تلوث (الشبشب) ملوث بالدماء .. وكذلك تلوث الشبشب الذى كنت انتعله ..

ــ هذا أمر طبيعى نظرا الى حالة الحجرة وقتذاك .. حسنا يا أيمس .. اننا سنقرع الجرس حينما نحتاج اليك.

وما هى الا دقائق حتى كنا فى الحجرة التى وقعت فيها الجريمة ..

وقد عرج هولمز على البهو واتى بالشبشب فلاحظنا كما أسلف ايمس ان نعليه ملطخان بالدماء .

ووقف هولمز يفحصهما بعناية كبيرة ومـــا لبث ان تمتم قائلا :

ــ هذا غريب .. بل من الغرابة بمكان .

وانحنى بغتة على حافة النافذة ووضـــع الشبشب على آثار الاقدام المطبوعة فوقها فطابقتها تمام المطابقة .. وهنالك نظر الى زميله مبتسما ولم ينبس ببنت شفة ..

وأما المفتش فقد لاحت على وجهه أمارات الانفعال وصاح قائلا :

ــ لقد برح الخفاء يا مستر هولمز .. ! ان باركر قـــد طبع بنفسه هذه الآثار على حافة النافذة .. وهى فى الواقع آثار تفوق فى عرضها ما يمكن ان يتركه انسان منتعل حذاء حينما يمر من النافذة . واذكر انك قلت فى سياق كلامك ان هذه الآثار هى آثار حذاء عريض .. وهنا نحن أولا قد وقفنا على السر ..

ولكن ماذا تفيد من هذا الاكتشاف يا مستر هولمز .. ؟

فقال صديقى وهو يستسلم الى التفكير :

ــ نعم ماذا نفيد .. ؟

واما هوايت ماسون فقد ضحك وهو يفرك كفيه ..

ــ الم أقل لكم اننا آزاء معضلة العضلات ؟ ها أنتم أولا ترون صدق قولى .

الفصــل السادس ــ قبس من النور

كان يتعين على شرلوك هولمز وزميليه ان يحققوا فى بعض المسائل فعولت على العودة بمفردى الى الفندق .. وخطر لى ان أعرج على حديقة ألقصر لعل جولة فى جوها الهادىء تنسينى تلك المأساة التى وقعت بين ارجائه .. بيــد انى ما كدت أوغل فى السير واستمتع بشذاها الرطيب حتى وقع لى حادث اعاد الى ذهنى ذكر ألفاجعة وترك فى نفسى أثرا سـيئا ..

ذلك انني ما كدت اقترب من بقعــة فى الحديقة تكاتفت أشجارها وتعانقت أغصانها حتى لتحجب عن ناظر القــادم اليها من ناحية القصر كل ما يدور خلفها حتى قرع سمعى حديث عقبته ضحكة نسائية رنانة .. فأسرعت فى الســير واذا بى ازاء مدام دوجلاس والرجــل المدعو باركر وهمــا لا يشعران بوجودى ..

شعرت بصدمة شديدة حينما شاهدتها على هذه الحال .. فقد كانت فى حجرة ألمائدة مثال الرزانة وضبط النفس .. اما الآن فقد ذهبت عنها كل آثار الحـــزن والاكتئاب وأشرق وجهها بابتسامة أثارتها عبارة رفيقها وانبعثت من عينيها أشعة البشر والسرور .. بينما جلس باركر وقــد شبك أصابع يديه واضاء وجهه الوسيم الذى تنبعث منــه آيات الجرأة بابتسامة هى ولا ريب صدى لضحكة رفيقته .

وما ان وقع بصرهما على .. بعد ان سبق السيف العذل .. حتى استعادا سكونهما وتقدم باركر يخاطبنى بعد ان تبادلا كلمة سريعة فقال :

ــ عفواً يا سيدى .. احسبنى فى حضرة الدكتور وطسن .. ؟

فانحنيت ببرود ينم بأجلى بيان عما تركه فى نفسى موقفهما من الاثر ..

فاستطرد قائلا :

ــ لقد رجحنا انك الدكتور وطسن . فان صداقتك لمستر شرلوك هولمز أشهر من نار على علم .. الديك ما يمنع من التحدث برهة الى مدام دوجلاس ؟؟

فتبعته بوجه مقطب الى حيث كانت جالسة وحييتها بتكلف فقالت :

ــ اخشى أن تكون قد حسبتنى قاسية القلب متبلدة الشعور .. !

فهززت كتفى وقلت :

ــ لا شأن لى بذلك ..

ــ قد يأتى يوم تنصفنى فيه وتصحح حكمك اذ لو كنت تدرى ...

فقاطعها باركر بسرعة :

ــ أن الدكتور وطسن فى غير حاجة الى الوقوف على ما تريدين الادلاء به .. فهو لا شأن له به كما قرر ذلك .

ـ هو ما تقول .. والآن ارجو ان تأذنالى بأن أواصل سيرى ..

فصاحت تخاطبنى فى توسل :

ـ لحظة واحدة يا دكتور وطسن .. ان لدى سؤالا على جانب عظيم من الاهمية لا يستطيع سواك ان يدلى فيه بالقول الفصل .. ذلك انك تعرف عن مستر هولمز وعن صلاته برجال البوليس ما لا يعرف غيرك .. فاذا فرضنا أنه احيط علما وبصفة غير رسمية بأمر من آلامور فترى هل يفضى به الى رجال البوليس ؟

فقال باركر باهتمام :

ـ نعم .. ما نود معرفته هو هل يعمل لحسابه الخاص أم لحساب البوليس ؟؟

فقلت :

ـ الواقع أنه لا حق لى فى بحث هذه المسألة والادلاء فيها بالرأى ..

قالت مدام دوجلاس :

ـ اننى أرجوك بل أتوسل اليك يا دكتور وطسن .. وكن على يقين أنك ستسدى الينا يدا .. أذا ما صارحتنا .

وكان صوتها وهى تلقى هذا القول يشف عن الاخلاص حتى لقد نسيت فى هذه اللحظة كل ما انطبع فى ذهنى من مظاهر خفتها واستهتارها . ولم يسعنى الا ان أجيبها قائلا :

ـ ان مستر هولمز يعمل فى تحقيقاته مستقلا عن غيره .. ولا يتبع آلا ما يوحى اليه عقله .. ولكنه يرى فى الوقت نفسه

ان من الوفاء لرجال البوليس الذين يحققون معه فى قضية واحدة ان يطلعهم على كل ما من شأنه ان يوقـع المجـرم الحقيقى تحت طائلة القانون .. هـــذا كل ما استطيع ان افضى به اليكم فى هذا الصدد .. وخير لكم ان تقصدوا الى مستر هولمز نفسه لا مستيضاحه ما تبغون .

القيت هذه العبـارة ثم رفعت قبعتى محييا وسرت فى طريقى .. بيد اننى نظرت خلفى قبل ان اتحول فشاهدتهما يتحدثان بأهتمام وهما يتبعاننى بنظرهما ففهمت ان موضوع حديثهما كان دائرا حول هذه المقابلة التى لم تكن فى الحسبان وقال هولمز حينما اطلعته على ما وقع :

ـ لا أريد آن يفضيا الى بشىء من أسرارهما يا وطسن ..

فان موقفهما سيكون عسيرا اذا تمخضت هذه القضية عن القاء القبض عليهما بتهمة الاتفاق الجنائى والقتل ..

ـ اذن أنت تظن ان الامر سيتطور الى هذا الحد .. ؟

فقال ونبراته تنم عن الرضاء والاغتباط :

ـ سأطلعك عما قليل على جوانب هذه القضية يا عزيزى وطسن .. ولست أعنى اننا قد كشفنا خفاياها ونفـذنا الى أعماقها .. فأننا على نقيض ذلك لا تزال لدينا مراحل طويلة الشقة قبل ان نصل الى كشف غوامضها . بيد اننا اذا توصلنا الى العثور على النقل المفقود ..

ـ أصحيح يا وطسن انك لا تعـلم ان محور القضـية يرتكز على هذا الثقل المفقود ؟ لا تحزن يا عزيزى فما أحسب

ان المفتش ماكدونالد أو رفيقه قد فطنا الى خطورة هذه النقطة . ثقل واحد يا وطسن !! تصور رياضيا يعتمد فى تمرين عضلاته على ثقل واحد ! أمر مدهش يا وطسن ! مدهش الى أبعد حد :

واشعل غليونه واعتدل فى مقعده وراح يقول :

ـ ان أول ما يجابهنا من هذه القضية يا وطسن هو ما فيها من الاقوال الكاذبة التى يقصد بها الى تضليلنا وذر الرماد فى عيوننا . وعلى ضوء هذا الرأى سنبدأ بحثنا .. فان كل ما قصه علينا باركر لا يعدو أن يكون كذبا تاما . بيد ان أقواله قد عززتها شهادة مدام دوجلاس . واذن فهى الاخرى كاذبة فى حديثها .

كلاهما يكذب ويدلس علينا .. واذن فقد وضح الامر وتعين علينا ان نعرف الباعث على الكذب وان نهتدى إلى حقيقة المسألة التى يجهدان فى اخفائها .

وقد تسألنى كيف علمت انهما يموهان علينا فأجيبك بأن ما سرداه علينا هو اختلاق محض وتلفيق مضحك لا يسيغه العقل . تصور أن القاتل عقب اقتراف جريمته قد استطاع فى أقل من دقيقة ان ينتزع خاتم الزواج من أصبع القتيل ثم يعيد الى الإصبع خاتما آخر كان فوق الاول ـ وهو ما يستحيل عقلا أنه يكلف نفسه عناء القيام به ـ ثم يضع الى جانب فريسته تلك البطاقة التى رأيناها !

اننى أقرر امامك أن هذا أمر ظاهر الاستحالة . وقد

تعترض يا وطسن بأن الخاتم لا يبعد ان يكون قد نزع قبل ارتكاب الجريمة . فأجيبك بأن بقاء الشمعة على حالها واضاءتها فترة وجيزة يدلنا دلالة واضحة على ان المقابلة بين القاتل والقتيل لم تستغرق وقتا طويلا .

ثم هل تصدق ان دوجلاس وقد سمعنا عن شجاعته ما سمعنا ينزل عن خاتم زواجه فى مثل هذه الفترة القصيرة ؟
كلا كلا يا وطسن . اننى موقن ان القاتل انفرد بغريمه زمنا ما وكان المصباح مضاء .

وقد تبين لنا ان الموت نجم عن الطلق النارى . واذن فلا مناص من القول بأن الرصاصة انطلقت فى وقت سابق للوقت الذى ذكره القوم . وعلى ضوء هذا الرأى قد أصبحنا ازاء مؤامرة منظمة من جانب شخصين سمعا الطلق النارى هما باركر وزوجة دوجلاس ..

فاذا أضفت الى ما سلف ان فى وسعى ان ابرهن على ان آثار الاقدام الموجودة على حافة النافذة قد طبعها باركر متعمدا لكى يضلل رجال البوليس وجب ان نعترف بأن القرائن والشبهات تحوم رويدا حول هذا الرجل ..

والآن يتعين علينا ان نعرف بالتدقيق موعد ارتكاب الجريمة .. ومما لا ريب فيه انها لم تكن قد وقعت حتى منتصف الحادية عشرة .. وهو آخر موعد ظل الخدم يروحون ويغدون فيه فى مختلف انحاء القصر . انه لم ينقض ربع ساعة بعد ذلك حتى ذهب الخدم جميعا الى غرفهم ما

عدا ايمس الذى ظل يعمل فى المطبخ . هذا وقد قمت بعدة تجارب بعد ان تركتنا تبين لى منها استحالة وصول أى صوت صادر من غرفة المكتب الى المطبخ ما دامت الابواب جميعا موصدة . والامر على نقيض ذلك فيما يختص بغرفة الوصيفة .. فانها أقرب الى الجناح الامامى من القصر .. وقد استطعت بمشقة وأنا فى داخلها ان اتبين ما يحدث خارجها من الاصوات المدوية .

وقد ظهر لنا من البحث ان رصاصة اطلقت عن كثب . ومعلوم ان الصوت فى مثل هذه الحال يكون خافتا الى حد ما ولكن من الممكن ان ينفذ فى سكون الليل الى حجرة الوصيفة . ومع أن هذه المرأة قد قررت امامنا انها ثقيلة السمع فقد ذكرت لنا فى سياق شهادتها انها سمعت قبل قرع الجرس بنصف ساعة صوتا خيل اليها أنه صوت اغلاق أحد الابواب . وهذا الوقت الذى حددته يطابق الحادية عشرة الا ربعا ..

وليس يخالجنى ادنى شك فى ان ما سمعته هو فى الواقع صوت الطلق النارى وان هذا الوقت هو الموعد الحقيقى لوقوع الجريمة . فاذا صح هذا بقى علينا ان نعرف ماذا كان يفعل مستر باركر ومدام دوجلاس (يفرض انهما بريئان من ارتكاب هذه الجريمة) فى الفترة بين الحادية عشرة الا ربعا حينما هرعا على صوت العيار الى أسفل القصر . والحادية عشرة والربع حين قرعا الجرس واستنجدا بالخدم . نعم ما الذى كانا بسبيله طوال هذه المدة ولماذا لم يطلبا

النجدة على الفور ؟ هذا هو السؤال الذى يجابهنا فى الوقت الحاضر . فاذا وفقنا الى الجواب قطعنا شوطا فى كشف غوامض هذه القضية . .

فقلت لصديقى : أننى مقتنع تمام الاقتناع بأن هذين الشخصين يعملان لغرض واحد . وما اقسى المرأة التى تضحكها دعابة ولما يمض على اغتيال زوجها ساعات معدودة.

ـ هو ذاك يا وطسن . ويكفينا ان نعلم انها قد اطاعت رجاء باركر وصعدت الى مخدعها دون ان تلقى نظرة على زوجها المضرج بدمه حتى توقن بأن ثمة تدبيرا وتواطؤا .

ـ اتتهم آذن باركر ومدام دوجلاس بارتكاب هذه الجريمة ؟

ـ الحق انك تصدمنى بأسئلتك التى تلقيها صريحة فى غير لباقة حتى ليخل الى انها مقذوفات تنطلق فى وجهى . . ! لو قلت أن باركر ومدام دوجلاس يعرفان سر الجريمة وانهما يتواطآن لاخفائه عنا لكنت أقرب ألى الصواب ولكان فى وسعى أن أجيبك جوابا شافيا . على أن رأيك الذى أدليت به الآن ليس على تمام الوضوح والجلاء وسأناقشك فيه لكى ترى العقبات التى تقوم فى سبيل الاخذ به .

اذا فرضنا ان بين هذين الشخصين نوعا من الحب الآثم وانهما عقدا العزم على أن يزيلا من طريقهما ذلك لرجل الذى يقوم حائلا بينهما فان هناك ما ينقض هذا الفرض من أساسه وهو التحريات الدقيقة التى قمنا بها وأثبتت لنا

بما لا يترك مجالا للشك أن الرابطة بين الزوجين كانت على أوثقها واشدها .

فقلت وقد تذكرت موقف الزوجـــة فى الحـديقة وهى تضحك مع رفيقها :

ـ لقد كان الوفاق من جانب الزوجة نفاقا وخداعا .

ـ الرأى السائد على كل حال ان الزوجين كانا على اتم وفاق ووئام . ومع ذلك لنفرض ان هذين العاشقين على جانب كبير من الدهاء وانهما توصلا بخداعهما الى ســـتر غرامهما عن الابصار ثم شرعا يدبران المكائد لاغتيال الزوج . فما الذى يحملهما على استعجال هذا المصير بينما الزوج مهدد من الخارج بخطر ..

ـ هذا الخطر من نسج خيالهما لا غير .

ـ ها ! لقد أدركت ما ترمى اليه يا وطسن . انى تبنى رأيك على أن كل ما أدليا به الينا ملفق من الالف الى الياء . وبعبارة أخرى تريد ان تقول أن ما قصه علينا كلاهما من أحاديث الخطر الخفى والجمعية السرية ووادى الاهوال وما يسمونه الرئيس ماكجنتى لا يعدو ان يكون كله حديث خرافة حسنا يا وطسن . فلننظر الى أين يؤدى بنا هذا الرأى .

اذا سلمت معك بأنهما قد أختلقا هذه القضية اختلاقـا ليجعلا منها باعثا صوريا على ارتكاب الجريمة وأنهما قـــد وضعا الدراجة فى الحديقة لتعزيز هذا الرأى والتدليل على مجيء الجانى من الخارج . ثم طبعا آثار الاقدام على حـافة

النافذة وتركا تلك الرقعة الى جانب القتيل .. فسنصطدم حتما بعقبات تزلزل هذه الافتراضات وتهدمها من أساسها .. اذ ما الذى يحملهما على ان يختارا من دون الاسلحة على تعدد أنواعها بندقية ذات فوهة مفصولة ؟ وهل كنا على تمام اليقين من ان صوت انطلاق الرصاصة لن يصل الى مسامع أى أنسان ؟ لقد كان من باب الصدفة المحضة أن الوصيفة لم تكترث لذلك الصوت الذى سمعته فى سكون الليل ولم تعمد الى الوقوف على مصدره قل يا وطسن ما الذى يحملهما على انتهاج هذه الخطة المضنية ؟

ـ الحق آننى لا استطيع أن أوفق بين هذه المتناقضات . .

ـ ثم هل يعقل ان يعمد العاشقان اللذان يتواطآن على اغتيال الزوج الى نزع خاتم الزواج من أصبع القتيل جهارا بعد موته مباشرة ؟ هل يستقيم هذا مع المنطق يا وطسن ؟

ـ كلا . .

ـ اذن دعني افترض رأيا آخر أدنى الى العقل وادخل فى باب الرجحان .. سنفترض ان دوجلاس القتيل كان يكتم سراً مخزيا يرتبط بماضى حياته وان هذا ما حمل القاتل على دخول القصر وارتكاب جريمته .. حتى اذا انتقم من غريمه عمد الى نزع الخاتم من أصبع القتيل مما يرجح لدينا ان الباعث على الجريمة يرجع الى اعتبارات تمت بصلة ما الى زواج دوجلاس الاول . لكن باركر وزوجة القتيل فاجآ القاتل قبل ان يلوذ بالفرار فعمد هذا الى اقناعهما بأن أية محاولة من جانبهما لالقاء القبض عليه ستجر وراءها

فضيحة شنعاء لا سبيل الى دفعها الا باخلاء سبيله . ولايبعد انهما بهذا الرأى وانزلا القنطرة (الكوبرى) فوق الخنـدق ثم رفعاه الى مكانه . ثم رأى القاتل ضمانا لسلامته ان يمضى سيرا على قدميه فترك دراجته فى مكان لا تدركه الابصـار حتى يكون قد اختفى عن العيان . لا ينطبق هذا الرأى مع المنطق السليم يا وطسن ؟

ــ اعتقد ذلك . .

ــ ولكن العاشقين يدركان بعد فرار القاتل انهما قـد زجا بنفسيهما فى ورطة يتعذر عليهما معها ان يقيما الدليل على أنهما لم يرتكبا هذه الجريمة . أو على الاقل لم يساهما فى حبك خيوطها . . فتراهما يعمدان الى تلطيخ حافة النافذة بآثار الدماء أيهاما بأن القاتل قد فر عن طريقها . فلما ادركا أن صوت العيار وصل الى مسامعهما فقط دون سـكان القصر أجمعين قرعا الجرس يطلبان النجدة كما هو الواجب فى مثل هذه الحالة . . ولكنهما فعلا ذلك بعد حدوث الجريمة بنصف ساعة . .

ــ وكيف تبرهن على صحة هذا الافتراض ؟

ــ اذا صح ان القاتل أتى من الخارج فليس من العسير تعقبه والاهتداء اليه . والتدليل بذلك على صحة الافتراض والا فان جعبتنا لم تفرغ بعد يا عزيزى وطسن . وفى رأيى أن ليلة أحدة اقضيها بين جدران مكتب القتيل تكون عونا كبيرا لى على كشف غوامض هذه الجريمة . .

- ليلة فى مكتب القتيل ؟

- لقد اتفقت مع ايمس على قضاء هذه الليلة فى مكتب القتيل . وعسى ان يلهمنى جو هذه الحجرة صواب الرأى . اننى اعتقد فى سلطان مثل هذه الاماكن وما يبعثه محيطها فى النفس من صادق الشعور . أبتسم يا عزيزى وطسن ؟ حسنا . سوف ترى . ولكن خبرنى .. هل أتيت بمظلتك الى هنا ؟

- نعـم ..

- هل تعيرنى اياها ؟

- بكل تأكيد . ولكن ما هزلها من سلاح ! لمن كان ثمـة خطـر ..

- لا تقلق يا عزيزى وطسن فلا خطـــر على .. والا ما تقاعدت عن التماس معونتك . لكننى أنوى ان أحمل مظلتك معى . وليس لدى ما يشغلنى فى الوقت الحاضر ســوى انتظار عودة زميلى ماكدونالد وهوايت ماسون من تنبردج حيث ذهبا يستقصيان عن صاحب الدراجة .

ولما أسدل الليل ستوره وافانا المفتش ماكدنالد وزميله هوايت ماسون . وبدا لنا من أمــارات الابتهاج التى كانت تلوح عليهما أنهما وفقا فى تحرياتهما توفيقا طيبا ..

قال ماكدونالد مخاطبا هولمز :

- اذا كنت قد ارتبت فى أول الامر فى قــدوم القاتل من الخارج فقد زال ارتيابى الآن اذ توصلنا الى معرفة مصدر

الدراجة ولدينا الآن معلومات أكيدة بأوصاف صاحبها . وتلك بالطبع خطوة كبيرة فى سبيل الكشف عن غوامض هــــذه القضية .

فقال هولمز : هذا بدء النهاية يا صاحبى . ولا يســـعنى الا أن أهنئكما من صميم قلبى ..

لقد اتخذت من حالة دوجلاس النفسية امس وانزعاجه قاعدة لبحثى . ولما كان هذا العارض قد طرأ عليــه عقب رجوعه من تنبردج فقد ايقنت انه أحس بخطر أثناء وجوده فى ذلك المكان . ولئن صح ان القاتل قد قصد الى هـــذا البيت على دراجة لم يكن ثمة شك فى انه وفد بدراجته أول الامر على تنبردج حيث لمحه دوجلاس وساورته المخــاوف والوساوس . ولذلك اصطحبنا الدراجة ورحنا نعرضـــها على أصحاب الفنادق الكائنة فى ذلك المكان فعرفها احدهم وانبأنا بأنها ملك لشخص يدعى هارجراف نزل بفندقه منذ يومين . وكانت هذه الدراجة وحقيبة صغيرة هما كل مــا يحمله معه من متاع . وذكر صاحب الفندق فضلا عن ذلك ان هارجراف هذا قد وفد من لندن كما هو ثابت فى سجل نزلاء الفندق . ولكنه لم يحدد فى السجل بقعة بعينها يمكن الاهتداء اليه بواسطتها فى تلك المدينة الكبيرة . وعلى الرغم من أن حقيبة الرجل وما بها من محتويات من صنع انجلترا فقد كان صاحبها أمريكيا ولا سبيل الى الشك فى جنسيته .

فقال هولمز مغتبطا :

ـــ هذا بديع يا صاحبى . لقد قمت بعمل ضخم فى خلال

هذه الفترة التى خلفتنا فيها . اتمم حديثك يا عزيزى ماكدونالد . ألم تهتد الى شخصية هذا الرجل ؟

ـ لقد تبين لى من البحث أنه أخذ الحيطة لنفسه ولم يترك ما ينم عن شخصه . وكل ما عثرنا عليه من آثاره هو خريطة صغيرة لهذا الاقليم تركها فى غرفة النوم . ولقد زايل الفندق صباح أمس راكبا دراجته ولم يعثر له على أثر حتى الآن ..

فقال هوايت ماسون :

ـ ان أمر هذا الرجل يحيرنى حقا يا مستر هولمز ! اذ لم يكن قد ارتكب ما يؤاخذ عليه . فلماذا لم يعد الى الفندق ويجلس فى حجرته ناعم البال كغيره من الناس ؟ أضف الى ذلك انه يعلم ان صاحب الفندق سوف يخطر رجال البوليس بغيابه وان اختفاءه سيفسح المجال للتفكير فى وجود صلة بينه وبين هذه الجريمة ..

ـ هو ذاك . ومع ذلك فقد برهن لنا باحتجابه حتى الآن وعدم العثور عليه على انه على جانب كبير من الفطنة وبعد النظر . ولكن ما هى أوصافه يا مستر ماكدونالد ؟

فأخرج المفتش مذكرة ونظر فيها ثم قال :

ـ لقد اتفق جميع الذين شاهدوه على انه يناهز الخمسين من عمره . اشيب شعر الرأس قليلا . مقوس الانف . تلوح على وجهه أمارات الشراسة والجفوة .. اما طوله فلا يتجاوز ستة أقدام .

فقال هولمز :

ـ ان هذه الاوصاف تكاد تنطبق على دوجلاس القتيل . فهو ينيف قليلا على الخمسين وله شعر أشيب وطول قامته كما ذكرت . ثم ماذا ؟

ـ وكان يرتدى ثوبا رمادى اللون ومعطفا قصيرا صفر ويضع على رأسه قبعة رمادية .

ـ وما شكل بندقيته ؟

ـ لا يتجاوز طولها قدمين اثنين . وكان فى وسعه ان يضعها فى الحقيبة دون كبير عناء أو ان يحملها تحت معطفه .

ـ وكيف تربط كل هذا بالقضية التى نحن بصددها ؟

ـ لقد أبرقت بأوصاف هذا الرجل الى جميع مراكز البوليس . ولن يتعذر علينا أن نهتدى الى كل شىء بعد ان نضع أيدينا عليه . ومع ذلك فسأبسط لك رأيى الآن .. لقد تبين لنا ان رجلا أمريكيا يدعى هارجراف وفد على تنبردج منذ يومين راكبا دراجة وحاملا حقيبة كان يخفى بداخلها بندقية مفصولة فوهتها مما يدل على أنه أتى وفى نيته أن يرتكب جريمة ما .. ولقد ركب دراجته صباح أمس وولى وجهه شطر هذا القصر حاملا بندقيته تحت معطفه وسالكا طريقه بين المزارع والحقول .. حتى اذا بلغ حديقة القصر اخفى دراجته فى الموضع الذى وجدناها به وكمن فى مخبأ يشرف منه على القصر فى انتظار رؤية دوجلاس .. وقد ترجح لديه ان انطلاق البندقية داخل

القصر سوف يحـدث دويا ويلفت اليه الانظار .. ولذلك آثر ان يطلقها من الخارج معتمدا على ان صوت الاعيرة أمـر مألوف فى مواطن الصيد والقنص فى ريف آنجلترا ..

فقال هولمز : كل هذا جلي لا غبار عليه .

— حسنا . ولكن دوجلاس لم يبرز له . فماذا يفعـل ؟ لم يجد بدا من ان يترك مخبـأه ويقترب من القصر وكان الليل قد أرخى سدوله فألقى القنطرة فوق الخندق ولـم يلتق فى طريقه بأحد . فانتهز هـذه الفرصة ودلف الى الداخل وتسلل الى أول حجـرة رآها وكمن خلف احدى الستائر . ولقد شاهد وهو فى مكمنه كيف رفـع القوم القنطرة وادرك انه لم يبق له من سبيل للفرار سـوى الخندق . ولبث فى مكانه حتى الساعة الحادية عشرة والربع وحينئذ اقبل مستر دوجلاس يتفقد انحاء القصر شأنه كل ليلة . وما ان نفذ الى هذه الحجرة حتى ارداه برصـاصة ولاذ بالفرار . ولما كان يعلم أن أصحاب الفندق سيرشدون الى دراجته وان هذه ستغدوا اثرا ينم عليه فانه تركها فى موضعها ومضى فى سبيله قاصداً الى لندن أو موليا وجهـه شطر ملجأ أمين أعده لهذا الغرض . فما قولك فى هـذا يا مستر هولمز ؟

— ان استقراءك لهذه القضية واضح لا غبار عليه . أما أنا فأرى ان الجريمة قد وقعت قبل الموعد الذى حدده القوم بنصف ساعة وان مدام دوجلاس ومستر باركر متواطئان فيما بينهما على اخفاء مسائل جوهرية وانهما سهلا للقاتل

سبيل الفرار أو على الاقل هرعا الى الحجرة قبل ان يتمكن من الافلات وانهما قد اصطنعا هذه الآثار التى تشير الى فرار القاتل عن طريق النافذة . بينما هما فى الحقيقة قد انزلا له القنطرة وساعداه على الفرار .

فهز الشرطيان رأسيهما . وقال ماكدونالد :

ـ آذا صح ما تقول يا مستر هولمز كنا كمن يتخلص من لغز ليقع فى آخر ..

وقال هوايت ماسون :

ـ بل ليقع فى لغز أشد تعقدا .. فما الذى يحمل الزوجة وهى لم تطأ أرض أمريكا على ان تتستر على هذا القاتل الامريكى ؟

فقال هولمز : اصارحكما يا صاحبى باننى أقدر هذه الاعتراضات حق قدرها . وقد اعتزمت ان أقوم ببعض الابحاث هذه الليلة . وأكبر املى انها ستساعدنا على كشف غوامض هذه المعضلة .

فقال الشرطيان معا : هل لنا فى مساعدتك يا مستر هولمز ؟

ـ كلا . كلا . كل ما انشده هو الظلام ومظلة الدكتور وطسن . وفى الحق ان ذهنى لا يفتأ يدور حول هذا السؤال الذى القيته على نفسى من أول الامر وهو : كيف يتأتى لرياضى أن يعتمد فى تمرين عضلاته على ثقل واحد ؟

ورجع هولمز الى الفندق متأخرا فى تلك الليلة واستيقظت

على دخوله الحجرة حيث كنا ننام على سريرين متجاورين ، فتمتمت قائلا :

ــ ما وراءك يا هولمز ؟

فوقف بجانبى معتصما بالصمت .. وما لبث ان أنحنى فوقى وهمس فى اذنى قائلا :

ــ الا تخشى يا وطسن ان تنام فى حجرة واحدة الى جانب انسان مختل الشعور قد فقد كل أسباب الرشد والادراك ؟

فقلت وقد استولت على الدهشة : كلا

فقال : هذا من حسن حظى .

واطبق شفتيه ولم يشأ ان يفوه بحرف واحد طوال تلك الليلة .

الفصل السابع ــ سر الجريمة

فى صباح اليوم التالى تناولنا طعام الافطار وعرجنا على مركز البوليس فوجدنا المفتش ماكدونلد ورفيقه بدزسان بعناية عدة رسائل برقية وبريدية جاءتهما من مختلف انحاء انجلترا . فقال هولمز يخاطبهما بلهجة مرحة :

ــ اما زلتما فى اثر صاحبنا الهارب المراوغ ؟ ما هى آخر الانباء التى وردت اليكما عن هذا الشقى ؟

فأشار ماكدونلد الى كومة الرسائل التى أمامه وقال فى لهجة تنم عن استيائه :

ــ لقد انهالت علينا الانباء من جميع انحاء انجلترا . وفى ثلاثة من هذه الانباء اشارة صريحة الى القبض عليه واتهامه

بجرائم معينة . ويلوح لى ان انجلترا قد امتلات بالهاربين ذوى المعاطف الصفراء .

فقال هولمز مشفقا :

ــ وارحمتاه لكما ! الا فاصبغبا ايها الصديقان الى نصيحة خالصة منى : أننى عندما قبلت العمل معكما فى هذه القضية اشترطت عليكما ان احتفظ بآرائى وان اعمل فى الدائرة التى يرسمها لى تفكيرى حتى اقيم الدليل الناهض على صحة هذه الآراء . وهذا الباعث هو الذى يحول الآن بينى وبين اطلاعكم على ما لدى من الآراء والمعلومات . على اننى لا ارضى لكما من ناحية أخرى ان تبددا جهودكما فى ابحاث لا غناء فيها ولا طائل تحتها . ولهذا اتيتكما الآن وفى نيتى ان انصح لكما بأن تنفضا ايديكما من هذه القضية .

فحدق الرجلان فى وجهه بدهشة .. وصاح ماكدونلد قائلا :

ــ اذن قد يئست من القضية ؟

ــ كلا . فأنا لا ارى ما يدعو الى اليأس من الوصول الى باطن الحقيقة .. وانما طريقكما فى معالجتها ملتوية لا تؤدى الى نجاح ..

ــ ولكن صاحب الدراجة ليس خيالا وانما هو حقيقة لا سبيل الى الشك فيها . فان لدينا اوصافه وحقيبته ودراجته . وما من ريب فى انه مختبىء فى موضع ما .. فلماذا لا نجد فى اثره ؟

ـ نعم اننى اوافقك على انه كامن فى مكان ما . ولا ريب عندى فى اننا سنهتدى الى اثره . ولكنى اضن بجهودك ان تبددها هباء فى ايستهام اوليفربول الخ . والواقع ان لدينـــا وسيلة أخرى أحسن للوصول الى الغاية المنشودة . .

فقال ماكدونلد متألمـــا :

ـ انك تخفى عنا شيئا يا مستر هولمز . وكان يخلق بك ان تسلك ازاءنا غير هذا المسلك . .

ـ تلك طريقتى فى البحث يا مستر ماكدونلد . بيد اننى لن اخفى عنكما ما لدى الا ريثما استوثق من صحة النتائج التى توصلت اليها وحينئذ افضى اليكما بكل ما اهتديت اليه ثم أعود الى لندن .

انكما تسديان الى جميلا اذا تركتمانى اعمل كما يتراءى لى . فاننى لا اكاد اذكر فيما عرض لى من القضايا معضلة تفوق هذه فى غرابتها وطرافتها . .

ـ لست افهمك يا مستر هولمز . . لقد أجتمعنا بك امس عقب عودتنا من تنبردج واطلعناك على ما عن لنا من الآراء فأبديت موافقتك عليها . فما الذى جد خلال هـــذه الفترة حتى غيرت رأيك فى القضية ؟

ـ ما دمت تلح على فى السؤال فلا ارى مناصا من ان أنبئك بأنى قضيت عـــدة ساعات داخل القصر فى الليلة المـــاضية كما اخبرتك من قبل .

ـ حسنا . فما الذى حدث ؟

ــ آه .. لا يسعني ان اجيبك اجابة شافية في الوقت الحاضر . وبهذه المناسبة اقول لك اني قد ابتعت رسما لموقع القصر اظن انه سيساعد المحقق مساعدة قيمة . لا تسأم يا عزيزي ماكدونلد واسمح لي أن اتلو عليك هذه العبارة المسطورة على الرسم : (ان قصر برلستون يعد من اجمل القصور العريقة في القدم . وقد شيد في عهد جيمس الاول على انقاض بناء آخر زالت الآن معالمه ..) .

ــ اتتغفلنا يا مستر هولمز ؟

ــ هذه أول مرة اراك تستسلم فيها للغضب يا ماكونلد . بيد انك اذا علمت ان هنالك عبارات تشير الى استيلاء احد القواد على هذا القصر عام ١٦٤٤ والى التجاء الملك شارل الاول اليه واجتبائه فيه عدة ايام في أبان الحرب الاهلية .. ثم زيارة قام بها الملك جورج الثاني لهذا القصر .. فانك تعترف معي في الحال بأن في تاريخ هذا القصر نواحي تدعو الى التأمل والتفكير ..

ــ لا ريب في هذا يا مستر هولمز . بيد ان ذلك لا يهمنا على الاطلاق .

ــ اتعني ما تقول يا ماكدونلد ؟ ان سعة الاطلاع وبعد النظر من الزم الصفات لمن يمارس مهنتنا . وارجو ان تقبل هذه الملاحظات من شخص قد عركته التجارب .

فقال المفتش باخلاص :

ــ انني أول من يسلم بهذا يا مستر هولمز . بيد انك تسلك سبلا غريبة في الوصول الى ما تريد .

ــ حسنا . لنترك التاريخ جانبا ولننظر الى ما نحن فيه .. لقد قمت فى الليلة المــاضية كمــا ذكرت لك بزيارة فى داخل القصر . ولكنى لم ار ضرورة لمقابلة مدام دوجلاس أو مستر باركر . وانما قصدت توآ الى الرجل الطيب القلب مستر ايمس وقد اذن لى بعد تبادل التحيــة فى ان اقضى شطرا من الوقت بمفردى فى مكتب القتيل . وكانت حجرة المكتب فى حالة طبيعية فاستطعت أن أقضى بين جدرانهــا فترة افدت منها فائدة كبرى .

ــ ماذا فعلت بداخلها ؟

ــ كنت ابحث عن الثقل المفقود . فاننى كنت اعلق عليه أهمية كبرى من أول الامر . وقد وفقت آلى العثور عليه .

ــ أين ؟

ــ آه .. لقد وصلنا الى النقطة الحساسة .. ارجو ان تترك هذه المسألة لوقت آخر . واعدك وعدا صادقا ان أشلعك على كل ما أعرفه .

فقال المفتش : لا مناص من النزول على رأيك يا مستر هولمز . ولكن ما الذى حملك على ان تطلب الينا أن نتخلى عن القضية ؟

ــ ذلك لانكما لم تحددا حتى الآن موضــوع تحقيقكمــا واستقصائكما .

ــ اننا نحقق فى قضية مقتل مستر جون دوجلاس صاحب قصر برلستون .

ـ اعلم ذلك يا عزيزى .. ولكنى ارجو الا تجشم نفسك عناء البحث عن صاحب الدراجة . واؤكد لك ان هذا البحث لن يجديك نفعا ..

ـ اذن ماذا ترانا نصنع ؟

ـ سأخبرك ماذا تصنع اذآ تعهدت بالامتثال .

ـ اعدك بذلك .

ـ وانت يا مستر هوايت ماسون ؟

فقلب الشرطى بصره بين زميليه متحير ثم قال :

ـ ما دام المفتش قد امتثل لما تريد فاننى احذو حذوه

فقال هولمز : هذا بديع . والآن اطلب اليكما ان تقوما بنزهة خلوية بين المزارع والحقول . ومتى تمتعتما بمباهج هذه الرحلة الجميلة واقبل المساء ...

فقاطعه ماكدونلد بلهجة الغضب وهو ينهض من مكانه :

ـ ماذا تعنى يا مستر هولمز ؟ انك جاوزت كل حد فى الدعابة والمزاح

فقال هولمز وهو يربت على كتفه :

ـ اذن فاقضيا النهار كما يروقكما . ولكن لابد ان تقابلانى هنا قبل الغروب .

ـ هذا اقرب الى الصواب يا مستر هولمز .

ـ والآن قبل ان نفترق ارجو ان تكتب كلمات قلائل الى مستر باركر .

ـ حسنا .

ــ اكتب ما املى عليك : « سيدى العزيز : لقد طـرا ما يستوجب تصريف المـاء من قاع الخندق املا فى الوصول الى . . . »

ــ ولكن هذا مستحيل . لقد فكرت فى الامر من قبل .

ــ ارجوك الا تقاطعنى . . وان تكتب ما املى عليك .

ــ حسنا . امل ما تريد .

فاستطرد هولمز متمما الرسالة :

ــ « . . . امـلا فى الوصـول الى ما قـد يسـاعدنا فى التحقيق . لقد اعددت كل شىء وسيبدأ العمال صباح غد فى تحويل مجرى المـاء . . »

ــ ولكن . .

فلم يعبأ به هولمز واستطرد :

ــ « . . . وقد رأيت ان اخطرك قبل الشروع فى هـذا العمل » .

والآن وقع على هذه الرسالة باسمك وابعث اليه بهـا مع احد رجالك حوالى الساعة الرابعة . وهو الموعد الذى سنلتقى فيه ثانية فى هذا المكان .

* * *

واجتمعنا فى الموعد المتفق عليه . . وكانت تلوح على هولمز امارات الجد والرزانة . أما أنا فكنت اضطرم شوقا للوقوف على ما تتمخض عنه هذه المقابلة واما الشرطيان فكانت تبدو عليهما علامات القلق ونفاد الصبر .

قال هولمز :

ـ الآن ايها السادة امامكم سبيل التجارب والتدليل مفتوحا على مصراعيه . وستحكمون بأنفسكم ان كانت الآراء التى كونتها من قبل تطابق النتائج التى وصلت اليها . ولما كان يبدو لى ان الليلة التى نحن مقدمون عليها شديدة البرد ولست اعلم كم تستغرق مهمتنا فاننى ارجوكم جميعا ان ترتدوا معاطفكم . والآن هلموا بنا فانه يتعين علينا ان نصل قبل حلول الظلام .

سرنا فى طريقنا ومررنا بحديقة القصر وشارفنا منفذا فى سورها الخارجى . فتسللنا الى الداخل مستترين بالظلام الذى أخذ يتكاثف رويدا وتبعنا هولمز حتى ادركنا بقعة كثيفة الاشجار تقع مقابل مدخل القصر ازاء القنطرة التى لم تكن قد رفعت بعد . وهنالك جثم هولمز خلف هذا الستار الذى اعدته الطبيعة من الاشجار المتشابكة فحذونا حذوه .

قال ماكدونلد فى لهجة خشنة : والآن ماذا نصنع ؟
فقال هولمز :

ـ نضبط عواطفنا فى انتظار ما سوف يقع ونجتهد الا تبدر منا حركة تنم عن وجودنا .

ـ لماذا جئت بنا الى هذا المكان ؟ الا يخلق بك ان تكشف لنا عن نواياك بصراحة ؟

فضحك هولمز وقال :

ـ صبرا يا مستر ماكدونلد . سينجلى لك كل شىء قريبا .

فقال المفتش فى استسلام يبعث على الضحك :

ـ ارجو ان يتحقق قولك قبل ان يهرأ البرد اجسامنا .

وسرعان ما آتشح القصر بجلباب الظلام وهبت علينا من ناحية الخندق ريح قارسة ارسلت الى اجسامنا قشعريرة وجعلت اسناننا تصطك بشدة . وفيما عدا المصباح المثبت بمدخل القصر والنور القوى المنبعث من المكتب كان كل شىء فى ظلام دامس . وكان السكون يبسط جناحيه فوق جميع الارجاء .

هتف المفتش بغتة :

ـ يالله ! الى متى نبقى على هذا الحال ؟ وما الذى تفيد من وراء هذا الانتظار ؟

فقال هولمز فى خشونة :

ـ اننى مثلك لا ادرى الى متى نبقى كذلك . ولو كان المجرمون يضعون لاعمالهم اوقاتا منظمة لا يحيدون عنها لكان ذلك أدعى الى راحتنا ! اما ما الذى ننتظره .. صه .. هو ذا ما جئنا لاجله .

كنا مختبئين فى بقعة تقع فى مواجهة نافذة المكتب التى ينبعث منها النور ولا يفصلها عنها سوى مسافة لا تتجاوز المائة قدم .. فبينما كان هولمز يتكلم شاهدنا فجأة شبحا يروح ويغدو فى الحجرة . ثم فتحت النافذة واستطعنا ان

تتبين خلال الظلام راس انسان يطل من النافذة .. وقد ظل برهة يحدق بعينيه محاولا ان يخترق حجب الظلام كأنما يريد ان يستوثق من ان احدا لا يبصره .. ثم انحنى الى الامام . وحينئذ سمعنا فى ذلك السكون المطبق جلبة مياه تتحرك . فأدركنا انه يقلب ماء الخندق بشىء فى يده . وما لبث الرجل ان جذب يده فجأة بخفة الصياد الماهر وعندئذ راينا جسما مستدير الشكل كبير الحجم يصعد من الماء النافذة ويمر خلالها .

وهنا هتف هولمز : الآن هلموا ايها الرفاق ..

استوينا على اقدامنا فى لمح البصر وراح هولمز يعدو فوق القنطرة ونحن فى أثره حتى اذا بلغ الباب قرع الجرس بعنف . وما هى الا لحظة حتى سمعنا صوت المزلاج يتحرك من الداخل . ثم فتح الباب ورأينا ايمس واقفا خلفه وعلى وجهه علامات الدهشة ..

دفعه هولمز جانبا وهرع ونحن فى اعقابه الى داخل الغرفة التى ابصرنا الشبح يطل من نافذتها .

وما كدنا ندخل حتى وقعت ابصارنا على سيسل باركر واقفا فى داخل الغرفة وبيده مصباح راح يصوب ضوءه نحونا . وما أن تبين وجوهنا حتى صاح :

ــ ما معنى كل هذا ؟ وماذا تبغون من مهاجمة هذا المكان ؟

ولكن هولمز لم يعبأ به بل اجال الطرف حوله بسرعة حتى وقع بصره على حزمة يقطر منها الماء كانت موضوعة تحت طاولة للكتابة . فانقض عليها وهو يقول :

ــ ذلك ما نبغى يا مستر باركر . كل ما نريده هو هــذه الحزمة المشتملة على الثقل المفقود .. هــذه الحزمة التى استخرجتها فى التو واللحظة من قاع الخندق ...

فحملق باركر فى وجه هولمز بدهشة وقال :

ــ وكيف علمت بوجود هذه الحزمة ؟

ــ الست انا الذى وضعها فى الخندق ؟

ــ انت وضعتها فى الخندق ؟ أنت ؟

فقال هولمز : على الاصح انا الذى ارجعتها الى مخبئهــا بالخندق . لعلك تذكر يا عزيزى ماكدونلد اننى عجبت أول الامر لغياب هذا الثقل وجود ثقل واحد . ولعلك تذكر كذلك اننى وجهت عنايتك الى هذه الملاحظة . بيد ان تتابع الحوادث انساك أن تعيرها ما هى جــديرة به من الاهمية وان تستنتج منها ما يعينك فى التحقيق . وفى الحق ان أول ما يخطر لذهن الباحث حينما يرى المــاء على مقربة منه وحينما يفتقد ثقلاً مثل الذى نحن بصدده أن المــاء لا شك يحتوى على هــذا الثقل فى جوف وقد خطر لى ان اتحقق من صحة هذا الخاطر فاستعنت بايمس الذى ادخلنى ليلة امس الى هذه الحجرة وشرعت اقلب فى المــاء مستعينا بمظلة الدكتور وطسن حتى وفقت أخيرا الى العثور على هذه الحزمة وتفقد محتوياتها

وقد كان يهمنا بالطبع ان نتوصل الى معرفة الشخص الذى اخفاها فى ذلك المكان . وكان سبيلنا الى هــذا الفرض تلك الرسالة التى بعثنا بها اليوم وأوضحنا فيها عزمنا على تجفيف الخندق غداً .. وكان غرضى من ذلك ان احمــل

الشخص الذى وضع الحزمة فى الخندق على ان يستردها من مكانها حالما يسدل الظلام ستوره، بالطبع . والآن قد شهدنا جميعا ما حدث وعرفنا الشخص الذى يهمه أمر هذه الحزمة . والكلمة لك الآن يا مستر باركر ..

قال شرلوك هولمز ذلك ووضع الحزمة فوق المنضدة وشرع يفك خيوطها واربطتها . ثم اخرج منها ثقلا طرحه أرضا فى أحد جوانب الغرفة وابرز من الحزمة حذاء من صنع امريكا كما يتضح ذلك من طرازه واستعراض مقدمه . ثم اخرج من الحزمة مدية طويلة مغمدة وصرة من الملابس تحتوى على زوج من الجوارب وسترة رمادية ومعطف قصير اصفر اللون ..

قال هولمز : ليس فى هذه الملابس ما يستوقف النظر سوى هذا المعطف وعرضه الى الضوء وراح يفحصه بعناية ثم قال :

ــ انظروا الى هذا الجيب الداخلى كيف يمتد الى داخل البطانة حتى ليسهل اختيارك على كل ما هنالك . ولئن كنت اخطأت فى أول الامر فى عدم انصياعى لرغبتك التى افضيت بها الى صديقى الدكتور وطسن حينما رآكما فى الحديقة فقد كان ذلك يرجع الى اعتقادى بأن لك ضلعا فى هذه الجريمة . وفوق ذلك فان ثمة اشياء ما تزال خافية علينا . ورجائى اليك آن تطلبى الى زوجك « مستر دوجلاس » ان يسرد علينا قصته .

وما كادت مدام دوجلاس تسمع العبارة الاخيرة حتى افلتت

من بين شفتيها صيحة دهشة وذعر . ولم تكن دهشتنا وذهولنا اقل من دهشتها وذهولها حين ظهر امامنا رجل خيل الينا انه برز من الجدار وقد جعل هذا الرجل يتقدم الى ناحيتنا .. وما كادت تشاهده مدام دوجلاس حتى ارتمت بين ساعديه . اما الرجل فانه بسط يده الى باركر فشد عليها هذا بحرارة ..

قالت الزوجة تحدث زوجها :

ــ لقد احسنت صنعا بما فعلت الآن . انا واثقة من انك احسنت صنعا

قال شرلوك هولمز :

ــ نعم يا مستر دوجلاس .. انك احسنت صنعا بظهورك الآن .

ووقف دوجلاس يقلب فينا بصراً زائغا شأن كل انسان يبرز من الظلمة الى النور . ولقد امعنت فى وجهه فاذا عيناه رماديتان تنبعث منهما آيات الجرأة والاقدام . واذا هو ذو شارب قصير قد دب فيه المشيب وذقن عريض بارز .. ولشد ما كانت دهشتى حينما دنا هذا الرجل منى ووضع بين يدى رزمة من الاوراق قائلا بلهجة انجليزية تشوبها رطانة امريكية :

ــ لقد سمعت عنك يا دكتور وطسن . فلعلك تسرد على قرائك تفاصيل هذه الحوادث كما سردت عليهم غيرها . انها مسجلة فى هذه الاوراق وانا واثق انك ستجد فيها ما يفوق

فى روعته وغرابته كل ما عرض لك من قبل . لقد حبست نفسى عن العالم يومين كاملين فى جحر ضيق وقضيت اليومين فى تسطير هذه الحوادث . والآن ها هى قصة (وادى الاهوال) أضعها بين يديك لتتصرف فيها كما تشاء .

فقال هولمز فى دعة :

ــ هذه الاوراق تتضمن الماضى بحوادثه يا مستر دوجلاس .. ولكننا الآن بحاجة الى سماع قصة الحاضر .

فقال دوجلاس :

ــ لك ما تشاء يا سيدى . هل تسمح لى بأن ادخن ؟ شكرا لك يا مستر هولمز . لعمرى انك خير من يقدر حالة انسان يقبع فى مكانه يومين دون ان يدخن مخافة ان تنم عنه رائحة الدخان وتهدى الى سبيله ..

على صاحب المعطف ان يخفى به بندقية صغيرة قد فصلت فوهتها .. وها هو خائط الثوب قد طرز اسمه على ياقة المعطف واثبت الى جانبه هذه العبارة : (فرميسا بالولايات المتحدة الامريكية) ولقد قمت ببحث قصير فى مكتبة قسيس هذه الناحية فتبين لى ان فرميسا هذه هى بلدة صغيرة مزدهرة واقعة على حدود احدى المناطق الغنية بالفحم والمعادن فى الولايات المتحدة . واذكر يا مستر باركر انك اشرت فى سياق حديثك معنا الى تلك المدة التى قضاها دوجلاس مع زوجته الاولى فى مواطن الفحم بتلك الديار . ولا يتعذر علينا ان نعلم ان الحرفين (و . ف) اللذين وجدا

مسطورين على الرقعة التى رأيناها الى جانب القتيل انما يرشدان الى معنى واحد هو (وادى فرميسا) وليس بعيدا ان يكون هو بعينه وادى الاهوال الذى سمعناكم تتحدثون عنه والذى يوفد الينا قتلة من هذا الطراز . اظن ان هذا جلى لا يحتاج الى افاضة فى الشرح والبيان . والآن يا مستر باركر احسبنى اعوقك بملاحظاتى عما تريد ان تفضى به الينا ..

وكان باركر خلال هذا الحديث قد ذهب نهبة الاحساسات والمشاعر المتباينة .. فقد لاحت على وجهه امارات الغضب والاندهال والحيرة .. على انه لم يلبث ان سيطر على شعوره وراح يقول فى تهكم وسخرية :

— اراك عليما بكل شيء يا مستر هولمز . ويحسن بك ان تكشف لنا ما تعلمه أكثر من هذا ..

— نعم ان فى وسعى ان اقص عليكم اشياء كثيرة يا مستر باركر . بيد ان الحديث يكون ابلغ اذا جاء عن طريقك ..

— اتظن ذلك ؟ ان كل ما استطيع ان اقوله لكم هو انه اذا كانت هناك اسرار فلست بصاحبها وليس من حقى ان افضى بها الى احد ..

فقال ماكدونلد بهدوء :

— اذا أصررت على هذا الرأى يا مستر باركر فسنضطر الى استصدار الامر بالقبض عليك ..

— افعلوا ما يروق لكم .

وقد ايقنت من صلابة الرجل آنه حزم امره وانه لا توجد هناك اية قوة تستطيع ان تحمله على الافضاء بما لا يريد . على ان صوتا نسائيا ما لبث أن بدد السكون واقبلت علينا مدام دوجلاس وهى تقول محدثة باركر :

ـــ لقد فعلت من اجلنا ما فيه الكفاية يا سيسل ولا حيلة لك فيما لم يكن فى الحسبان ..

فقال هولمز : بل لقد فعل اكثر مما ينبغى . وارجو ان تثقى ايتها السيدة اننا نعطف عليك ولذلك اهيب بك أن تضعى ثقتك فينا وان تطلعينا بمحض

لقد سمعت عنك يا مستر هولمز .. بيد اننى لم افكر قط فى ان ظروف الحياة قد تجمع بيننا .

وكان المفتش ماكدونلد فى خلال ذلك ينظر فى دهشة وذهول الى هذا الرجل الذى برز من حجب الظلام . وما لبث ان هتف :

ـــ هذا يبعث على الحيرة حقا ! اذا كنت أنت مستر جون دوجلاس صاحب قصر برلستون .. فمن هو اذن ذلك الذى قضينا يومين نحقق فى حادث مقتله ؟ ومن أين برزت الآن لابصارنا ؟ يخيل الى انك قفزت من باطن الارض كأنك الشيطان بعينه ..

فقال هولمز : الذنب ذنبك يا مستر ماكدنلد . فانك لم تشأ أن تطلع على خريطة القصر وعلى الكتيب القيم الذى يشرح حادث اختفاء الملك شارل الاول . والواقع ان اولئك

القوم ما كانوا يحتجبون عن العيون فى تلك الازمنة السالفة الا ولديهم من المخابىء الحصينة ما يلوذون به عند الضرورة . وليس ثمة ما يمنع مستر دوجلاس من آن يلجأ الى المخبأ الذى سبقه اليه شارل الاول .. وفى الحق لقد كنت مقتنعا بأننا لا شك سنهتدى الى مستر دوجلاس تحت سقف هذه الغرفة ..

فقال ماكدونلد : وهل كنت تخدعنا طوال هذه المدة يا مستر هولمز ؟ وكيف طوع لك ضميرك ان تتركنا نبدد جهودنا فى بحوث لا طائل تحتها ؟

ـ كلا يا عزيزى ماكدونلد اننى لم اخدعك . اننى فى الواقع لم اكون لنفسى رأيا جازما فى هذه القضية الا فى الليلة السابقة .. واذ لم يكن فى وسعى ان اقيم الدليل على صحة هذا الرأى سوى هذه الليلة فقد اشرت عليك وعلى زميلك ان تقضيا النهار كما يروقكما وأن توافيانى مساء . وهل كان فى وسعى ان افعل غير ذلك ؟

اننى ايقنت حينما عثرت على صرة الملابس أمس واستخرجتها من قاع الخندق ان الجثة التى راحت ضحية الجريمة فى هذه الغرفة لا تمت بسبب الى مستر جون دوجلاس .. وانما هى جثة صاحب الدراجة الذى وفد من تنبردج . وفى الحق لقد كان عسيرا على أن آخذ بغير هذا الرأى . ومن ثم اصبح يتعين على ان ابحث عن مستر دوجلاس نفسه . وهدانى التفكير الى انه لا شك قد استعان

بزوجته وصديقه على الاختفاء فى مكان امين ريثما تتهيأ له الظروف الملائمة للفرار ..

فقال دوجلاس : لقد صورت المسألة تصويرا يطابق الحقيقة يا مستر هولمز . وفى الحق لقد رأيت ان أحتال على قوانينكم بموتى المصطنع . فانى لم اكن أدرى على وجه التدقيق كيف ينظر القانون الانجليزى الى هذه الجريمة . اضف الى ذلك أننى وجدت الفرصة سانحة لتضليل اولئك الشقياء الذين يتعقبوننى اينما ولت وجهى . ولكن كونوا على تمام اليقين ايها السادة بأننى لم افعل ما يخل بنوأميس الشرف والكرامة .. وسترون صدق قولى حينما أسرد عليكم قصتى ..

ليس فى عزمى ان اسرد عليكم كل شىء من البداية .. فانكم ستجدون كل ذلك مسطوراً فى مذكراتى التى وضعتها الآن بين يدى الدكتور وطسن وستحكمون بأنها قصة غريبة تبعث على الدهشة .. ولكنى الآن اسوق اليكم موجزها فيما يلى :

هنالك قوم يكنون لى فى صدورهم بغضا هائلا يسترخصون معه كل غال فى سبيل الوصول الى وشفاء حقدهم على . وما داموا يسعون فى هذه الدنيا فلا نجاة لى منهم ولا امل لى فى الحياة الهادئة .. وقد ظلوا يجدون فى اثرى من شيكاغو الى كاليفورنيا حتى تركت لهم أمريكا على رحبها . وخيل الى بعد ان تزوجت ونزحت الى هذه البقعة الهادئة اننى سأقضى بقية ايامى فى سكون وسلام ..

وقد حرصت على الا اطلع زوجتى على ما هنالك حتى لا يساورها القلق . ولكن يخيل الى انها قد المت بأطرافه الحقيقة بفضل الكلمات التى كانت تفلت منى .. بيد أنها حتى امس لم تكن قد وقفت بعد على لب الحقيقة . ولقد قصت عليكم هى وباركر كل ما يعرفانه عن هذه القضية .. لان الوقت لم يسمح لى فى ليلة الحادث بأن اسرد عليهما كل شيء . اما الآن فانها تعرف الحقيقة برمتها ..

ولقد كنت فى اليوم السابق لهذه الحوادث فى تنبردج وهناك لمحت رجلا كانت رؤيتى اياه نذيرا لى بالخطر المحدق .. فقد كان هذا الرجل الد أعدائى وما فتىء يطاردنى طوال هذه السنين كأنه ذئب جائع يتعقب فريسته . وقد ادركت ان المعركة الفاصلة باتت قريبة . فقصدت الى القصر توا وشرعت أعد العدة للطوارىء معتزما ان اقاوم بمفردى حتى النهاية ..

وبقيت على استعداد طيلة النهار ولم اشأ الظهور فى الحديقة حتى لا يرديني عدوى برصاصة من بندقيته . وما ان ارخى الليل سدوله ورفعت القنطرة حتى شعرت بالطمأنينة اذ لم يخطر لى قط ببال ان يجد الشقي الجرأة على دخول القصر والتربص لى بين جدرانه .. على اننى لم اكد ادلف الى هذه الغرفة فى طواف الليلى وانا بجلباب النوم حتى شعرت شعورا مبهما بأن هناك خطراً يتهددنى . وملكنى هذا الشعور حتى خيل الى آن الخطر يكاد يتجسم امام ناظرى . واحسب ايها السادة ان هناك حاسة سادسة

تتكون عند اولئك الذين تحدق بهم الاخطار من كل جانب ..
هي حاسة الشعور بدنو الخطر ..

ما كدت أدخل هذه الغرفة حتى رأيت حذاء بارزا من وراء ستار النافذة . فأدركت سر هذا الشعور الذى ساورنى حال دخولى الحجرة ..

وكنت ممسكا بيدى شمعة تنير سبيلى بيد ان مصباحا فى البهو كان يرسل الى الحجرة ضوءا كافيا . وكان أول شيء فعلته انني تركت الشمعة ووثبت لاتناول مطرقة كانت موضوعة على رف الموقد . وفى تلك اللحظة انقض على الشقى وفى يده مدية يبرق نصلها . فقذفته بالمطرقة بكل ما املك من قوة فأصابته ورأيت المدية تسقط من يده . على انه دار حول المائدة بسرعة غريبة وأخرج بندقية من تحت معطفه وصوبها نحوى ولكنى تعلقت بها قبل ان يصل اصبعه الى الزناد .. وقبضت عليها من ناحية الفوهة واخذنا نتقاتل على امتلاكها قتالا دام اكثر من دقيقة . وقد ادرك كلانا ما ينتظره اذا افلتت البندقية من قبضته . وفيما نحن فى صراعنا الهائل حادث فوهة البندقية الى وجهه وانطلق المقذوف . فسقط (تيد بلدوين) — اسم الرجل — يتخبط فى دمه . ولقد شوهت القذيفة وجهه تشويها بشعا حتى بات يتعذر على اقرب الناس اليه أن يعرفه ..

واقبل باركر مهرولا فرآنى اترنح عند حافة الطاولة . وسمعت زوجتى فى تلك اللحظة تهبط الدرج فهرعت اليها واوقفتها خارج الحجرة حتى لا يقع بصرها على ذلك المشهد

البشع وعدتها بأن الحق بها بعد لحظة . أما باركر فقد فهم كل شيء ووقف كلانا يترقب وفود الخدم الينا . بيد اننا لم نر احدا فأدركنا أنهم لم يسمعوا شيئا وان سر هذه المأساة بات محصورا بين اشخاصنا . .

وفى تلك اللحظة تفتق ذهنى عن فكرة بارعة . ذلك ان معصم القتيل تجرد اثناء نضالنا وانحسر عنه كمه فرأيته عليه وشما مثل هذا . انظروا . .

وكشف عن ساعده وأرنا اشما اسمر اللون هو عبارة عن دائرة يتوسطها مثلث تطابق تمام المطابقة ذلك الذى شاهدناه على ذراع القتيل . ثم استطرد :

ــ لقد كان منظر هذا الوشم هو الذى بعث بهذه الفكرة الى ذهنى . . ثم ان الشقى كان يشبهنى فى الطول ولون الشعر . اما الملامح فكان من المستحيل تمييزها بعد التشويه الذى اصابها . . ولذلك شرعت فى الحال فى انفاذ الفكرة التى خطرت لى . . فنزعت ملابس القتيل بمعاونة باركر والبسناه جلبابى ثم تركناه مطروحا على الارض كما شاهدتموه فيما بعد . ولقد حزمنا ملابسه وشددناها الى الثقل وهو كل ما كان فى متناول ايدينا فى تلك اللحظة ثم قذفنا بحزمة الثياب الى قاع الخندق . اما الرقعة التى كان ينوى أن يتركها الى جانبى بعد قتلى فقد ابقيتها الى جانب جثته . واما الخاتمان اللذان كنت اضعهما فى اصبعى فقد خلعت اولهما والبسته اياه . أما خاتم الزواج فكان يستحيل خلعه كما ترون لانه لم يفارق اصبعى منذ زواجى . واذن

فقد تركنا هــذه المسألة للظروف ولم نعمل لها حســابا . واخيرا اتيت بقطعة من المشمع والصقتها على يده فى مثــل هذا الموضع (ودل بأصبعه على الموضع) فجــازت عليك الحيلة رغم ذكائك يا مستر هولمز . ولو انك نزعت قطعــة المشمع لمــا وجدت تحتها اثرا لجرح ..

وقد فكرت فى اننى اذا استطعت ان اختفى عن العيان مدة من الزمن ثم انزح سرا الى بقعة أخرى تلحق بى زوجتى اليها فانه قد يتيسر لنا ان نقضى بقية ايامنــا فى هــدوء وطمأنينة . ذلك ان هؤلاء الابالسة لن يقر لهم قــرار من ناحيتى ما دمت على قيد الحيــاة . بيد انهم اذا علموا من الصحف أن بلدوين قد تمكن منى واغتالنى طاب خاطرهم وكفوا عن تعقبى ومطاردتى . هذا ولم يكن متعسرا لضيق الوقت ا ن اطلع باركر وزوجتى على كل شىء . بيــد انى افهمهما كل ما تجب معرفته للقيام بدوريهما انفاذا لخطتى . ولمــا كنت على علم بتاريخ هذا القصر ومخابئه فقد استطعت الاختفاء وتركت لباركر ان يرتب كل شىء ..

واحسب أيها السادة انكم تستطيعون ان تصوروا لانفسكم الدور الذى قام به باركر . فانه فتح النافذة وطبــع على حافتها آثار الاقدام حتى يوهم بأن القاتل فر منها .. وفى الحق انه لم يكن فى وسعه والقنطرة مرفوعة ان يسلك غير هذا السبيل . فلما اتم كل شىء قرع الجرس وطلب النجدة كما هو الواجب فى مثل هذه الاحوال .ا ما ما حدث بعــد ذلك فانكم على تمام العلم بتفاصيله ..

تلك هى الحقيقة بحذافيرها لا تحوير فيها ولا تبديل .
وكل ما اسألكم اياه هو ان تتكرموا بتحديد موقفى من هذه المأساة كما تراه قوانين بلادكم .

ساد بعد ذلك صمت عميق قطعه هولمز بقوله :

ـ ان القوانين فى صلبها لا تتوخى سوى تعميم العدالة .
ولكن اخبرنى كيف استطاع هذا الرجل ان يعرف مقرك ؟
بل كيف استطاع دخول القصر ؟ وكيف اهتدى الى اختيار المكمن الذى تربص بك فيه ؟

ـ لا سبيل لى الى العلم بشىء من هذا

فبهت هولمز وقال فى لهجة تنم عن شعوره بخطورة الموقف :

ـ اخشى ان اقول ان قصتك لم تنته بعد يا مستر دوجلاس . وانك مستهدف لما هو اخطر من قوانين محاكمنا .

نعم هنالك اخطار تتهددك يا مستر دوجلاس . ونصحيتى لك ان تأخذ الاهبة لما هو مدخر لك فى عالم الغيب .

* * *

والآن ايها القارىء لنترك جانبا قصر برلستون بمأساته ونرجع الى ما قبل عشرين عاما .. ونذهب بك الى ربوع الديار الامريكية حيث نسرد عليك قصة فريدة فى نوعها رهيبة فى احداثها . ومتى انتهينا من سوقها اليك واستطعنا ان نتغلغل فى باطن هذه القضية حاضرها وماضيها .. عدنا بك الى بيت شرلوك هولمز حيث تقف على ختامها .

القسم الثانى
الفصل الاول ـ المسافر

فى مساء اقرس البرد كأن القطار ينساب فى منطقة جبلية تحفها المناجم متجها الى بلدة فرميسا الكائنة فى طرف الوادى الذى يسمى باسمها . وكان سواد المسافرين بهذا القطار بالحديث والتدخين . ولم يكن يمتاز عنهم سوى شاب فى من عمال المناجم وقد راحوا يقطعون الطريق الى بلدتهم نهاية العقد الثالث من حياته قد اتخذ مقعدا فى احد اركان المركبة وراح يجيل ناظريه فى المشاهد المتعاقبة التى كان القطار يطويها طيا . كان الشاب وسيم الطلعة ذا عينين رماديتين تنبعث منهما آيات الذكاء . وكان مظهره فى الجملة ينم عن دماثة الخلق . على ان المدقق فى وجهه لا يلبث أن يأنس فى انطباق فكيه قوة الشكيمة وشدة العارضة ..

وكان الشاب يبرز من جيبه بين محطة وأخرى خطابا كبير الحجم فيطالع فيه ويدون على هامشه بعض ملاحظات وقد مد يده الى جيبه الخلفى واخرج مسدسا كبير الحجم اخذ يقلبه بين يديه ثم اعاده بسرعة الى جيبه . ولكن احد العمال لمحه فقال يخاطبه :

ـ يظهر انك متأهب للطوارىء ايها الرفيق ..

فقال الشاب :

ـ هذا صحيح .. وفى الحق ان امثال هذا المسدس من الزم الاشياء لنا فى مكان كالذى جئت منه ..

— ومن أى مكان جئت ؟ !

— من شـيكاغو ..

— هل انت غريب عن هذه البقاع ؟

— نعم ..

— سترى انك قد تحتاج هنا الى استعمال هذا السلاح ..

فقال الشاب وقد بدت على وجهه امارات الاهتمام :

— آحقا تقول ؟

— الم تسمع عن احداث جسام وقعت هنا ؟

— كلا لم اسمع عن شيء غير عادى ..

يخيل الى ان انباء هذه الحوادث قد طبق ذكرها الآفاق .. وستصل الى سمعك قريبا على كل حال .. ولكن خبرني ماذا حملك على القدوم الى هنا ؟

— لقد سمعت ان لديكم عملا لكل طالب عمل ..

— هل أنت عضو فى آتحاد العمال ؟

— بغير شك ..

— اذن ستتحقق رغبتك .. هل لديك اصدقاء .. ؟

— كلا .. لم اتخذ اصدقاء بعد .. بيد انى املك من الوسائل ما يهيء لى سبيل التعرف اليهم ..

— وكيف ذلك ... ؟

— اننى عضو فى اتحاد جمعية الاحرار ولهذه الجمعية فروع فى كل مدينة .. وما دام لها فروع هنا فاننى لابد واجد اصدقاء .

احدثت هذه العبارة تأثيرا غريبا فى نفس السامع .. فقد اخذ يتلفت حوله فى حذر .. فألفى العمال مستغرقين فى الحديث ..

نهض من مكانه وجلس الى جانب الشاب وبسط له يده قائلا :

— يدك ايها الصديق ..

فتصافح الاثنان ثم قال العامل :

— أراك تتكلم باخلاص يا صاحبى .. بيد انه يحسن بى ان استوثق من أمرك

ورفع يمينه الى حاجبه الايمن .. فما كان من الشاب الا أن رفع يساره . فقال العامل :

— الليالى المظلمة شديدة الخطر ..

فقال الشاب :

— على الغرباء ..

— هذا بديع حقا يا صاحبى .. أنا الاخ سكانلان .. عضو الجمعية رقم ٣٤١ بوادى فرميسا .. وانى سعيد حقا برؤيتك فى هذه البقاع .

— شكرا لك .. وانا الاخ جون ماكموردو .. عضو الجمعية رقم ٢٩ بشيكاغو التى يتولى زعامتها الرئيس (سكوت) ومن حسن حظى اننى التقيت بأحد الاخوان بمثل هذه السرعة ..

ـ الواقع اننا منبثون هنا فى كل مكان وفى الحق ان الاتحاد لم يقو نفوذه ويتعاظم سلطانه فى اية بقعــة من بقاع الولايات المتحدة كما هو الحال فى وادى فرميسا وليس من شك فى اننا سنفيد كثيراً من مثلك ما يزال فى عنفوان الشباب .. على انى لا استطيع ان افهم كيف ان فردا من اتحاد العمال لا يمكنه ان يجد عملا فى شيكاغو ..

فقال ماكموردو :

ـ اننى لم أكن عاطلا هناك ..

ـ وما الذى حملك اذن على مغادرتها ؟

فأومأ ماكموردو الى رجلين من رجال البوليس كانا بداخل المركبة وابتسم قائلا :

ـ لو ادرك هذان الشرطيان ما حملنى على ذلك لطــارا سرورا ..

فقال سكانلان هامسا :

ـ هل اقترفت ما يعاقب عليه ؟

ـ اننى غارق فى الجرائم الى اذنى ..

ـ اتنتظر السجن .. ؟

ـ بل انتظر ما هو أشد منه ..

ـ اذن قد قتلت احداً .. ؟

وادرك ماكموردو أنه افضى بأكثر مما ينبغى فقال :

ـ لم يحن الوقت بعد للتصريح بكل شيء وبحسبك الآن

أن تعلم ان هناك دوافع قوية حملتنى على مغادرة شيكاغو ..

— مهما يكن من امر الجرائم التى ارتكبتها فان رفاقنا سيرحبون بك .. ولكن خبرنى الى أين تقصد الآن .. ؟

— اننى اقصد الى فرميسا ..

— واين تنوى الاقامة .. ؟

فأبرز ماكموردو مظروفا وعرضه الى ناحية الضوء قائلا :

— هاك عنوان بيت مؤثث (بنسيون) قد اشار على أحد أصدقائى بالنزول فيه والبيت بشارع شريدان وصاحبه يدعى شافتر ..

— انا لا اعرفه .. فان فرميسا لا تقع فى دائرتنا .. ولكنى انصح لك قبل ان نفترق .. بأنك اذا وقعت فى مأزق اثناء اقامتك فى فرميسا فما عليك الا ان تولى وجهك شطر ناد يدعى (يونيون هاوس) وهناك تقابل الرئيس ماكجنتى رئيس جمعية فرميسا .. والآن الى اللقاء ايها الرفيق .. قد لا يبعد ان يضمنا مجلس الجمعية فى احدى الليالى .. ولكن لا تنس ان تقصد الى الرئيس ماكجنتى اذا ألقيت نفسك فى ورطة ..

غادر سكانلان القطار فى المحطة التالية تاركا ماكموردو غارقا فى أفكاره . وما لبث القطار ان بلغ فرميسا فهم ماكموردو بالنزول واذا بأحد العمال يعترضه قائلا :

— يبدو من هيئتك انك غريب عن هذه الناحية ايها الرفيق .. دعنى احمل حقيبتك وأدلك على الطريق ..

وسار الاثنان وسط المدينة فاذا شوارعها قذرة تتفرع منها ارقة ضيقة غير منتظمة .. واذا منازلها خشبية ذات شرفات مهدمة .. على انهما ما كادا يوغلان قليلا حتى لاحت لهما حوانيت منسقة على الجانبين تتلألأ فيها الانوار ومنتديات للمقامرة ومشارب يهرع اليها العمال عقب كد النهار ..

اشار العامل الى أحد هذه المنتديات وقال :

— هذا المنتدى يدعى « يونيون هاوس » ورئيسه جاك ماكجنتى ..

فقال ماكموردو : ومن يكون هذا الرجل ؟

— ماذا .. ؟ ألا تعرف الرئيس .. ؟

— وكيف تتاح لى معرفته وانا غريب عن هذه الناحية .. ؟

— ان اسمه يملأ الاسماع وجميع الصحف تتحدث عنه فى هذه الايام ..

— ولماذا تتحدث عنه الصحف .. ؟

فأجاب العامل بصوت خافت :

— تتحدث عنه الصحف لاعماله ..

— وماذا فعل .. ؟!

— يا الهى .. ! الا تعلم .. ؟ ! ولكن صبرا ستسمع قريبا عن افعاله وافعال أعوانه ..

- هل له أعوان .. ؟ يخيل الى اننى قرأت شيئا عن هؤلاء القوم بينما كنت فى شيكاغو .. اليسوا هم عصبة من السفاكين .. ؟

فجمد العامل فى مكانه وحملق فى وجه رفيقه مشدوها وهمس :

- اذا كنت تحرص على حياتك فالزم جانب الصمت والحذر .. وثق انك لن تعمر طويلا اذا ذهبت تصرح بمثل هذه الاقوال على قارعة الطريق ..

- اننى لم أذكر شيئا من عندياتى .. ولكن اردد فقط اقوال الصحف ..

فراح العامل يجيل الطرف حوله فى حذر كأنه يتوقع أن يفاجئه خطر خفى وقال :

- ان ما ذكرته هو عين الصواب . . فانهم ملطخو الايدى بدماء ضحاياهم .. ولكن حذار أن تقرن اسم جاك ماكجنتى بشىء من الجرائم .. فان اعوانه ينقلون اليه كل شىء ..

* * *

واستعلم ماكموردو من رفيقه عن عنوان المنزل الذى يقصد اليه فأرشده اليه ثم افترقا .. وتقدم الى الباب فقرعه ففتح ووجد ماكموردو نفسه امام فتاة شقراء على جانب كبير من الجمال راحت تنظر اليه وقد تورد وجهها حياء وخفرا

فبهت الفتى واضطرب وارتج عليه القول فقالت له الفتاة بصوت عذب :

ـ حسبت الطارق ابى .. هل جئت لمقابلته .. ؟ لقد مضى الى البلدة وانا انتظر قدومه بين لحظة واخرى ..

فأجاب ماكموردو وهو يصعدها بعينه :

ـ كلا يا آنسة .. لست فى شدة الحاجة الى والدك .. لقد امتدح لى بعض الناس منزلكم هذا واشادوا على بالنزول فيه .. وقد ادركت الآن انهم كانوا على حق وانهم اخلصوا لى النصح ..

فقالت الفتاة وهى تبتسم :

ـ لقد تعجلت فى تكوين هذا الرأى ..

ـ بل لا يسع من اوتى حظا من التقدير الا ان يقول ما قلت ..

فضحكت وقالت :

ـ تفضل بالدخول يا سيدى .. انا ادعى « أيتى » ابنة مستر شافتر وقد توفيت والدتى وانا الذى اتعهد شئون الدار .. ارجو ان تتفضل بالجلوس فى هذه الغرفة حتى يأتى والدى .. آه .. ها هو قد اتى .. وفى وسعك ان تتفق معه على ما تريد ..

* * *

وقد اوضح ماكموردو لرب الدار ما يبغى .. وما لبثا ان

اتفقا على ان يحل ماكموردو فى البيت لقاء اثنى عشر ريالا يؤديها كل أسبوع .. وهكذا استقر المقام بماكموردو طريد العدالة .. على حد تعبيره .. فى بيت شافتر .

الفصل الثانى — الرئيس

كان ماكموردو فتى دمث الخلق .. فلم يمض عليه اسبوع فى ضيافة شافتر حتى اصبح أحب شخصية بين النازلين معه فى (البنسيون) وقد أعجب الجميع بسحر حديثه وحضور بديهته وطربوا لصوته الشجى ..

ومنذ اللحظة التى حل فيها بذلك البيت راح يبدى نحو الفتاة أعجابا واضحا جعل الجميع يعتقدون انها قد حلت من نفسه مكانة سامية .. والحق انه لم يحجم عن مكاشفتها ولما يمض عليه يومان فى منزل والدها بما يكنه لها من حب .. وما فتىء كل يوم يردد على مسامعها آحاديث ولعه وغرامه بها ..

ولما كان ماكموردو على حظ وافر من الثقافة فقد آستطاع ان يجد عملا فى احد المكاتب ولم يكن يتهيأ له من الفراغ ما يمكنه من مقابلة رئيس الجمعية التى ينتمى الى إتحادها ..
ولكن حدث ذات مساء ان جاءه سكانلان رفيقه فى القطار فقصدا الى مشرب .. وهناك راح سكانلان يوضح الغرض من زيارته قال :

— لقد تذكرت عنوانك يا ماكموردو .. وجئت لرؤيتك

.. واننى لاعجب من امرك .. كيف لم تتقدم نفسك لرئيس الجمعية بعد ..

فأجابه ماكموردو :

ـ لقد كنت منهمكا فى البحث عن عمل .

ـ لكن لابد لك من السعى الى مقابلته فى (يونيون هاوس) فى أقرب وقت ..

فابدى ماكموردو دهشته وقال :

ـ لقد مضى على اندماجى فى سلك الجمعية ما يربى على العامين ولم اكن اعلم ان من الضرورى الى هذا الحد مقابلة رئيس الجمعية الفرعية ..

ـ قد يكون ذلك جائزا فى شيكاغو ..
ـ ولكن نظام الجمعية واحد فى كل مكان ..

فحدجه سكانلان بنظرة صارمة وقال :
ـ القول الحق .. ؟
ـ ولم لا .. ؟

ـ خير لك أن تصغى الى نصحيتى .. وتبادر بالذهاب اليه على الفور ..

وافترقا وفى عزم ماكموردو أن يعمل بهذه النصيحة .. بيد أن شافتر دعاه فى ذلك المساء الى غرفته الخاصة .. وصارحه بقوله :

ـ لقد خيل الى يا سيدى أنك تهتم بابنتى اكثر مما يجب .. فهل انا على صواب .. ؟

فأجاب الشاب :

ـ نعم ..

ـ حسنا .. والآن اود ان اصارحك بأنك جئت بعد فوات الاوان .. فقد سبقك آخر الى طلب يد ابنتى ..

ـ لقد علمت ذلك منها .

ـ لم تقل لك من هو الشخص الذى فاز بيدها .. ؟

ـ كلا .. وقد استفسرتها فلم تجبنى

ـ ربما خشيت ان تخيفك ..

فهتف ماكموردو فى دهشة :

ـ تخيفنى .. ! ؟

ـ نعم يا صديقى .. ولا جناح عليك ان تخشى بأسه .. فانه يدعى تيد بلدوين .

ـ ومن يكون هذا الانسان .. ؟

ـ هو احد الزعماء فى عصبة السفاكين .. « اعضاء جمعية الاحرار » ..

فانتفض الشاب وقال :

ـ ولكنى عضو فى هذه الجمعية .

ـ انت .. ؟ ! لو اننى علمت ذلك من قبل لما تركتك تدخل بيتى ولو نقدتنى مائة ريال فى الاسبوع ..

ــ وما ذنب الجمعية ومبادؤها تحض على البر وعلى العمل لتوثيق روابط المحبة والتضامن بين اعضائها .. ؟

ــ قد يكون ذلك فى مكان آخر غير هذا ..

ــ وما شأنها هنا .. ؟

ــ انها هنا جمعية للاغتيال وسفك الدماء .. !

فضحك ماكموردو كأنه لا يصدق ما سمع وقال :

ــ وكيف تقيم الدليل على صحة ما تقول .. ؟

ــ وهل من دليل ابلغ من الجرائم التى ارتكبوها والتى اربت على الخمسين عدا ؟ كل انسان فى هذه النواحى يعلم ذلك علم اليقين ..

ــ اصغ الى يا سيدى .. اننى وفدت على هذه المدينة غريب عن كل ما فيها . وكنت وما ازال انتمى الى جمعيــة تعاونية تنتشر فى طول الولايات المتحدة وعرضها وليس فى مبادئها عوج .. ولكنك تقول لى الآن ان فرع هذه الجمعية هنا يرتكب الجرائم ويسفك الدماء .. فهل تستطيع ان تقيم الدليل المقنع .. ؟

ــ سترى الدليل بعينيك اذا عشت فى هــذه البلدة .. ولكنى نسيت انك فرد منهم . ولن تلبث ان تسرى اليك عدواهم والهذا أرجو ان تفتش عن بيت آخر فاننى لا استطيع ان ابقيك تحت سقف منزلى !

* * *

وهكذا ألفى ماكموردو نفسه محكوما عليه بمغادرة البيت والابتعاد عن الفتاة التى يهواها .. ولقد وجدها فى ذلك المساء منفردة فى قاعة الاستقبال فقص عليها متاعبه .. قال :

- لقد انذرنى والدك يا (ايتى) بمغادرة هذا المكان . ولكنى ما كنت اكترث بذلك لو كان الامر يقف عند هذا الحد .. فلقد تعرفت بك منذ اسبوع واخذ بيد انك الآن قوام حياتى .. ولن أقوى على العيش بدونك ..

فقالت الفتاة :

صه يا مستر ماكموردو .. لقد صارحتك من قبل بأنك جئت متأخرا .. وقلت لك اننى وعدت غيرك بالزواج ..

- وهل كنت أفوز بوعد منك لو كنت سبقت غيرى .. ؟
فأخفت الفتاة وجهها بين كفيها وراحت تبكى ..
قالت :

- ليت المقادير ارسلتك قبل سواك !
فجثا على ركبتيه أمامها وهتف :

- كفى يا ايتى بحق الرحمة .. ! أتريدين القضاء على حياتك وحياتى من أجل هذا الوعد .. ؟ لا تصغى الى غير ما يمليه عليك فؤادك ايتها الحبيبة ..

صمتت الفتاة فأمسك بيدها البضة بين يديه وقال :
- قولى انك تقبلين الاقتران بى فأدبر كل شىء لهذه الغاية ..

ــ كلا .. لا استطيع الاقتران بك هنا فى هذه المنطقة .. أن دون ذلك عقبات جسام .. واذا شئت فررنا معا الى مكان آخر ..

ففكر ماكموردو قليلا ثم قال بالحاح :

ــ كلا .. بل اننا نتزوج ونعيش هنا .

ــ وهل ثمة ما يمنعنا من الرحيل معا ؟

ــ كلا يا ايتى .. ولكنى لا استطيع أن أغادر هذه البلدة ..

ــ والسبب .. ؟

ــ اننى لا استطيع ان ارفع راسى امام أى انسان اذا غادرت هــذا المكان كما يغادره كل هارب جبان .. فما الذى نخشاه من بقائنا هنا .. ؟ أليست لنا حرية التصرف فى شئوننا .. ؟ ومن ذا الذى يستطيع الوقوف فى طريقنا ما دمنا متحابين ..؟

ــ أنك لا تدرى ما وراء الاكمة ولا تعلم كل ما هنالك لانك لا تزال حديث عهــد بهذا الاقليم .. اواه لو كنت تعرف من هو بلدوين هذا .. ومن هو ماكجنتى واعوانه .. !

فقال ماكموردو :

ــ كلا .. اننى لا اعرفهم .. ولكنى لا اخشى بأسهم . وقد قضيت حيــاتى ايتها الحبيبة بين أقوام اشــداء .. كانوا دائما يخشون جانبى ويرهبون بطشى .. ولكن اذا كان هؤلاء القوم قد روعوا هذه البقاع بجرائمهم كما قال والدك .. وكان الجميع يستطيعون أن يدلوا عليهم واحدا واحدا فكيف لم تمتد اليهم يد القانون ؟

ــ ذلك لان احدا لا يجسر ان يتقــدم لتأدية الشــهادة ضدهم .. ولو فعل للقى حتفه فى الحال .. ثم انهم يدبرون جرائمهم بمهارة لا تدع سبيلا للايقاع بهم ولكن لابــد انك قرأت هذه الانباء فى الصحف .. وما احسب صحيفة واحدة فى انحاء الولايات المتحدة تخلو من الكتابة عن هؤلاء القوم ..

ــ صحيح اننى قرأت فى الصحف احاديث من هذا الطراز فكنت احسبها من خيال الكتاب .. ولكن الا يمكن ان يكون هؤلاء القوم ضحية ظلم وجور فلم يجدوا وسيلة لدفــع الظالم عن انفسهم غير ان يلجأوا الى اعمال العنف والبطش ..

ــ لا تقل هذا يا جون .. فذلك ما يعتذر به ذلك المخلوق المدعو بلدوين كلما اخذت عليه سلوكه السىء ..

ــ ايعتذر بذلك .. ؟

ــ نعم .. وهذا ما يحملنى على بغضه .. نعم يا جون . اننى امقت هذا الرجل واخشى شره .. واشفق ان تدهمنا من ناحيته كارثة جسيمة اذا كاشفته بحقيقــة شــعورى نحوه .. ولهذا الح عليك فى أن نفر معا من هنا .. فنصحب والدى ونولى وجوهنا الى حيث لا يستطيع هــذا الشقى واعوانه ان يصلوا الينا ..

ففكر ماكموردو فى الامر مليا مرة أخرى ثم قال فى عزم :

ــ كلا .. لن ينالكما سوء يا ايتى ما دمت الى جانبك .. سوف ترين اننى لا اقل عن هؤلاء القوم قوة وبطشا .. ولكن من القادم .. ؟

وفتح الباب فجأة ودخل شاب يختال فى مشيته .. وكان وسيم الطلعة فى مثل سن ماكموردو وقامته .. تبدو عليه امارات الجرأة وتنبعث من عينيه دلائل الشراسة والبطش ..

نظر الى الشابين بغلظة فوثبت ايتى من مكانها وقد لاحت على وجهها علامات الخوف والجزع .. قالت :

ـ اننى سعيدة بقدومك يا مستر بلدوين .. انك جئتنا الليلة مبكراً خلافا للعادة تفضل بالجلوس ..

فلم يجلس بلدوين .. بل نظر الى ماكموردو باحتقار وقال مقتضبا :

ـ من هذا ..

ـ هو صديق لى يا مستر بلدوين وقد حل ضيفا علينا .. مستر ماكموردو .. اننى اعرفك بمستر بلدوين ..

فحنى كلاهما رأسه للاخر وقال بلدوين :

ـ احسن ان الآنسة ايتى قد اطلعتك على العلاقة التى تربطنى بها .. ؟

ـ لا أعلم ان بينكما روابط ..

ـ احقا تقول .. ؟ اذن فقد عملت الآن .. ويحسن بك الآن ان تنطلق للاستمتاع بنزهة فى هذه الليلة البديعة ..

ـ شكرا لك فلست اميل الى التنزه .

فقال بلدوين بحدة :

ــ اصحيح ما تقول .. ؟ اذن ربما كنت تميل الى القتال .. ؟

فنهض ماكموردو واقفا وقال :
ــ انني على تمام الاستعداد ..
وهنا طاش صواب ايتى وهتفت متوسلة :

ــ اصمت بالله يا جون .. وانت يا تيد كن عاقلا ولا ...
فقاطعها ماكموردو :

ــ اظن يا ايتى انك اذا تركتنا بمفردنا استطعنا تسوية كل شيء فيما بيننا .. ولكن ما رأيك يا مستر بلدوين فى جولة فى الفضاء المجاور للمنزل .. ؟
فقال غريمه :

ــ سأصفي حسابي معك دون ان تتدنس يداى .. ولسوف تتمنى لو لم تطأ قدماك عتبة هذه الدار .
فصاح ماكموردو :

ــ ليس انسب من هذه الفرصة لتسوية الحساب ..
ــ بل سأترك ذلك لفرصة أخرى اهيئها بنفسي .. انظر الى هذا .

وكشف عن ساعده فرأى عليه ماكموردو وشما غريبا .. هو عبارة عن دائرة يتوسطها مثلث واستطرد قائلا :
ــ اتعلم ما معنى هذا .. ؟
ــ لا اعلم .. ولا يهمنى ان أعلم .

ـ ولكنك ستعرف قريبا .. وقد يكون فى وسع الآنسة ايتى أن تقص عليك طرفا من آمر هذا الوشم .. اما انت فسوف تسعين الى جاثية على ركبتيك وحينئذ اطلعك على ما اعددت لك من عقاب .. لقد زرعت شوكا وستحصدين ما زرعت ..

ورماها بنظرة نارية غادر بعدها الحجرة فظل كلاهما صامتا هنيهة ثم طوقت الفتاة عنق ماكموردو بساعديها وقالت :

ـ ما اشجعك يا جون .. ! ولكن هذه الشجاعة لن تجديك قتيلا .. ولا سبيل الآن غير الفرار .. فأنج بحياتك هذه الليلة وآلا ضاع كل امل فى نجاتك .

فتخلص ماكموردو من ساعديها برفق وقبلها ثم اجلسها امامه وقال :

ـ لا تجزعى من اجلى ايتها الحبيبة .. فاننى عضو فى الجمعية التى ينتمون اليها ويرهبون الناس باسمها ..

فقالت :

ـ ومادمت عضوا فى هذه الجمعية فلماذا لا تذهب الى الرئيس ماكجنتى وتكتسب صداقته .. ؟ عجل بذلك يا جون واجتمع به قبل أن ينطلق هؤلاء الذئاب فى اثرك ..

فقال ماكموردو :

ـ آننى ارى فى ذلك رأيك .. وسأذهب اليه على الفور ..

* * *

وقصد ماكموردو الى المنتدى فدجده غاصا بالعمال تدار عليهم كؤوس الشراب وتنبعث من افواههم سحب الدخان فتكاد تحجب خلفها الانوار المتلألئة ..

اجال البصر حوله فرأى فى اقصى المكان رجلا طويل القامة قوى البنية .. يضع سيجارا فى ركن فمه فترجح لديه ان هذا الرجل هو ماكجنتى دون سواه ..

كان رجلا طويل القامة كالعمالقة .. ينسدل شعره الفاحم على عنقه وينبعث من عينيه السوداوين بريق الخبث والقوة ..

شق ماكموردو لنفسه طريقا بين القوم دون ان تفارقه شجاعته ..

وقد قابل نظرات ماكجنتى الهائلة بثبات ورزانة .
بادره الرئيس بقوله :

ـ لا أذكر أيها الشاب اننى رأيتك قبلا .

ـ اننى حديث عهد بهذه الديار يا مستر ماكجنتى ..

ـ لكن حداثة عهدك لا تمنعك من مخاطبة الناس بألقابهم ..

وانبعث صوت من المجلس يقول :

ـ انه يدعى الرئيس ماكجنتى ايها الشاب .

ـ انا آسف يا سيدى الرئيس .. والحق اننى لا اعلم

شيئا من تقاليدكم .. كل ما هنالك ان صديقا اشار على بمقابلتك ..

— ومن هذا الصديق .. ؟

— الاخ سكانلان .. عضو الجمعية رقم ٣٤١ بفرميسا .. انني اشرب نخب صحتك وتقديرا لهذه المقابلة ايها الرئيس .

قال هذا ورفع الى فمه كأسا قدم له .. وأشار بنصره وهو يحتسي الكأس اشارة ما كاد يراها ماكجنتى حتى رفع حاجبيه الكثيفتين وقال :

— اصحيح ما أرى .. ؟ لابد من آن استوثق أولا يا مستر ...

— .. ماكموردو .

— نعم لابد من التثبت يا مستر ماكموردو .. اننا لا نثق بأحد فى هذه الناحية ولا نصدق كل ما يقال .. تعال معى ..

وذهب به الى غرفة مليئة بالبراميل فأغلق الباب بعناية وجلس فوق احدها وراح يحدق فى الشاب بعينيه اللتين تزيلان من النفس كل أسباب الاطمئنان .. وظل كذلك لا ينبس بكلمة زهاء دقيقتين ..

اما ماكموردو فقد قابل نظراته دون ان يضطرب أو يفقد ابتسامته .. وفجأة انحنى ماكجنتى وأبرز مسدسا ضخما وقال :

ـ اصغ الى يا هذا .. اذا ثبت انك محتال تبغي خداعنا فسيكون مصيرك الموت المحقق ..

فقال ماكموردو مستنكراً :

ـ من دواعى الاسف والعجب ان تستقبلوا كذلك اخا لكم جوزميلا ..

ـ عليك أولا ان تبرهن على صحة دعواك والويل لك اذا اخفقت .. فى أى الجمعيات كنت عضوا .. ؟

ـ هل انت الذى اغتلته .. ؟

فأحنى ماكموردو رأسه علامة الايجاب .

ـ ولماذا قتلته .. ؟

ـ كنت اشتغل بتزييف النقود .. وكان هذا الرجل المدعو بيتو يقوم بتوزيعها . وفى أحد الايام هددنى بافشاء سرى .. فلم أتردد فى قتله ثم هربت الى مناطق التعدين ..

ـ ولماذا آخترت هذه البقعة دون غيرها .. ؟

ـ لاننى علمت من الصحف ان اهلها لا يكترثون لمثل ماضي ..

فقال ماكجنتى ضاحكا :

ـ كنت مزيفا ثم قاتلا .. واخيرا جئت هذه البقاع وفى ظنك ان اهلها سيقابلونك بكل ترحاب .. ؟؟

فقال ماكموردو :

ـ ما تقول ...

ــ حسنا .. أننى اعتقد أنك ستصبح ذا شأن بيننا .. والآن خبرنى .. هل يمكنك فى الوقت الحاضر ان تشتغل بالتزييف .. ؟

فأخرج ماكموردو من جيبه قبضة من النقود الفضية وقال :

ــ هاك مثالا من صنعى ..

فتناولها ماكجنتى بيده الضخمة التى تشبه يد الغوريلا وراح يفحصها فى الضوء وما لبث ان هتف :

ــ يا الهى .. ! اننى لا ارى فارقا بينها وبين النقود الحقيقية .. ! انا واثق الآن انك ستغدو عضوا فذا .. وفى وسعنا أن نقوم بعملية تزييف النقود وتوزيعها بمساعدة بعض الاعضاء الاكفاء .

ــ وانا على تمام الاستعداد للمساهمة فى العمل ..

ــ يلوح لى انك قوى الارادة .. فانك لم تجفل حين سددت اليك مسدسى ..

ــ ذلك لان شخصا سواى هو الذى كان مستهدفا للخطر ..

ــ من هو .. ؟

فأخرج ماكموردو مسدسا من جيب صديريته وقال :

ــ هو انت يا سيدى .. لقد كنت متأهبا لك طول هذه الفترة . وما احسب أن رصاصتك كانت تسبق رصاصتى .

فاحمر وجه ماكجنتى غضبا .. ولكنه ما لبث ان انفجر ضاحكا وقال :

— نحن فى الحق لم نر عضوا فذا مثلك منذ اعوام طويلة . وفى يقينى أن الاعضاء سيفخرون بزمالتك ..

— فى الجمعية رقم ٢٩ بشيكاغو ..

— من هو رئيسها .. ؟

— جيمس سكوت ..

— وماذا تصنع هنا .. ؟

— اننى اعمل مثلكم .. وان يكن عملى الآن ضئيلا متواضعا .

— أراك حاضر البديهة سريع الجواب .

— هو ذاك .. فاننى معروف بطلاقة اللسان ..

— هل تنجز ما يعهد به اليك بأسرع ما يمكنك .. ؟

— السرعة هى احدى الصفات التى اشتهرت بها ...

— حسنا سنختبرك قريبا .. هل اتصلت بك انباء الجمعية فى هذه الناحية ؟

— سمعت أنها تضم اليها كل من يريد الاندماج فى سلكها .

— اصدقنى يا مستر ماكموردو .. ما الذى حملك على مغادرة شيكاغو ؟

— ان حياتى رهن بافشاء هذا السر .

فدهش ماكجنتى لانه لم يتعود ان يخاطب بهذا الاسلوب

.. واعجبه حزم الشاب وثبات جنانه .. قال :

ـ ولمـاذا لا تبوح لى بسرك .. ؟

ـ لاننى لا أحب ان اكذب عليك ..

ـ آذن فسرك من الخطورة بحيث لا تستطيع ان تبـوح بـه .. ؟

ـ قـل ما تشـــاء ..

ـ اصغ الى ايها الشاب .. لا يسعنى كرئيس لهـذه الجمعية ان اضم اليها عضواً لا يمكنه ان يحيطنـا بمـاضى حياته ..

فظهرت على ماكموردو علامات الدهشة ولكنه اسرع فأخرج من احد جيوبه الداخلية قصاصة من جريدة قديمة وقال :

ـ هل يمكن ان تشى بأحد اخوانك .. ؟

فصاح ماكجنتى غاضبا :

ـ اننى لا اتردد عن صفعك اذا عطر لك ان تقرن الوشاية والخيانة باسمى .

ـ اذن دعنى اعتذر لك أيها آلرئيس . والواقع اننى أشعر بالطمأنينة معك .. انظر الى هذه القصاصة ..

فألقى ماكجنتى بصره على القصاصة فوجدها تشير الى حادث اغتيال المدعو جوناس بيتو فى احد شوارع شيكاغو ..

ـ ســأل :

وفى هذه اللحظة اقبل احد الخدم فصاح به ماكجنتى :
ــ ما الذى اتى بك يا رجل .. ؟ الا استطيع أن اخلو للحديث مع احد دون آن تقتحم الباب علينا .. ؟

فوقف الخادم مترددا لحظة ثم قال فى وجل :

ــ اننى آسف يا سيدى .. ولكن مستر تيد بلدوين يصر على مقابلتك الآن ..

وما كاد الخادم يتم عباراته حتى اقبل بلدوين وهو متجهم الوجه .. فدفع الخادم الى الخارج واغلق الباب . ونظر الى ماكموردو فى غضب وقال :

ــ أذ نقد سبقتنى الى هنا .. ؟ ان لدى ما اقوله عن هذا الرجل يا سيدى الرئيس ..
فصاح ماكموردو :

ــ آذن قل ما عندك فى حضرتى ..
ــ بل سأخبره حينما اشاء وبالاسلوب الذى يحلو لى ..
فقال ماكجنتى محدثا بلدوين :

ــ نحن الآن أمام زميل جديد قد انضم الى زملائنا فلا يجمل بنا ان نستقبله هكذا يا بلدوين ..

ــ لقد عرضت عليه أن ينازلنى لتصفية الحساب الذى بيننا ولكنه آمتنع . وانا الآن على استعداد لان اطرح موضوع النزاع أمامك يا سيدى الرئيس لتتولى الفصل فيه ..
ــ وكيف قام النزاع بينكما .. ؟

— ان النزاع بيننا يدور حول فتاة لها مطلق الحريـة في اختيار الزوج الذى تريده ..

فصاح بلدوين : هل صحيح لها مطلق الحرية .. ؟

فقال ماكجنتى : نعم ما دام الطرفان عضوين فى جمعيـة واحدة ..

— هل هذا قرارك النهائى .. ؟

— نعم هذا قرارى .. !

فقال بلدوين :

— اتخذل زميلا قضى فى خدمة الجمعية خمسـة أعـوام وتنتصر لدخيل لا تعرف من امره شيئا .. ؟

فقطب ماكجنتى حاجبيه وفكر قليلا ثم قال :

— الا سحقا لاولئك النساء اللائى يفسـدن على رجالى علاقاتهم الوطيدة .. الرأى عندى أن تجعلا الكلمة الاخيرة للفتاة دون سواها .. فانه ليس من شأنى فى الواقع ان ادلى اليكما بقرار نهائى فى هذا الموضوع .. وأن المهام الملقاة على عاتقى لا تيسر لى الوقت الكافى للبت فى امثال هذه المسائل العاطفية .. اما انت أيها الاخ ماكموردو فسـوف تنتخب عضوا فى الجمعية رقم ٣٤١ على مقتضى طقوسنا الخاصة .. وموعدنا لذلك مساء السبت القادم ..

الفصل الثالث ــ الارهاب

في اليوم التالى ترك ماكموردو بيت شافتر الى بيت آخر تملكه امرأة ارلندية طيبة القلب .. فأقام به نزولا على ارادة الرئيس الذى طلب اليه ان يتجنب تحدى زميله بلدوين وان يلزم في ذات الوقت جانب الحيطة والحذر وهو يقوم بعملية لتزييف ..

وقد سمح له شافتر بأن يزوره حينما يشاء .. وكذلك لم تنقطع صلات الصداقة بين ماكموردو وايتى .. بل بالعكس زادتها الايام رسوخا ..

ولقد رأى ماكموردو ان لا خطر عليه من القيام بعملية التزييف فى حجرة نومه الخاصة .. فأعد الادوات الضرورية ورح يزاول مهمته فى اطمئنان . مستعينا بأعوان امناء من اعضاء الجمعية كانوا يزورونه بين الفينة والفينة ويخرجون من لدنه وجيوبهم ممتلئة بنقود جديدة لامعة لا يجدون أقل صعوبة فى توزيعها ..

* * *

قصد جون ماكموردو الى مركز الجمعية فى اليوم المحدد لانتخابه عضوا .. وكان يعتقد ان عملية الانتخاب ستتم دون شيء من الطقوس المعقدة .. بيد انه لم يكد يصل الى مكان الاجتماع حتى تلقفه أحد الاعضاء ودلف به الى غرفة جانبية صغيرة فتركه بها .. واغلق الباب .

وانصت ماكموردو جيدا .. فسمع مزيجا عجيبا من

الاصوات الآدمية .. خيل اليه معها انه يسمع جلبة مئات من الخلائق ..

ولم تطل وحدته .. فقد فتح الباب بعد دقائق . ودخل منه رجل طويل القامة يضع على صدره شارة خضراء موشاة بالذهب ويتبعه رجلان آخران يلوح انهما يشغلان مركزا ادنى فى الجمعية .

قال الرجل محدثا ماكموردو :

ــ لقد امر الرئيس بأن توثق وتعصب عيناك ..

فى اليوم المحدد لانتخابه عضواً .. ورفعوا كم القميص عن ذراعه الايمن .. ثم أتوا بحبل وشدوا يديه شــدا وثيقا وألبسوه قبعة رخوة سوداء تدلت فوق عينيه حتى لم يعد يرى شيئا . وقادوه أخيرا الى قاعة الاجتماع ..

ووقف ماكموردو لا يبصر شيئا ولا يصل الى سمعه سوى لغط الاعضاء وهم يتهامسون .. واخيرا دوى فى اذنيه صوت ماكجنتى كأنه صادر من مكان سحيق :

ــ يا جون ماكموردو .. هل أنت عضو فى اتحاد جمعيات الاحرار .. ؟

فأحنى رأسه مجيبا ..

ــ هل انضممت الى جمعية شيكاغو رقم ٢٩ ؟

فأحنى رأسه ثانية ..

قال ماكجنتى :

- يجب ان تعلم بأن لنا تقاليد وواجبات لا يقوى عليها الا الاشداء .. وان اخبارك شرط اساسى لقبولك زميلا لنا فهل انت على استعداد للتجربة .. ؟

- نعم ..

- هل أنت شجاع .. ؟

- نعم ..

- اخط خطوة الى الامام لتقيم الدليل على صحة ما تقول .

وهنا شعر ماكموردو بجسمين مدببين يضغطان عينيه حتى خيل اليه انه اذا تقدم الى الامام قيد شعرة سملت عيناه وفقد بصره .. ولكنه مع ذلك سيطر على اعصابه وخطا الى الامام بشجاعة .. فتلاشى الضغط من امام عينيه وصفق له القوم بحماسة ..

سأله ماكجنتى : هل تقوى على احتمال الالم .. ؟

- نعم ..

- سنختبرك ..

وما كاد ماكجنتى ينطق بهذه الكلمة حتى احس ماكموردو بألم هائل فى ذراعه الايمن كاد معه ان يغيب عن الصواب .. ولكنه بذل جهد الجبابرة ليكتم صرخة أوشكت ان تفلت منه وعض على شفتيه ثم أطبق يديه وقال آخر الامر :

- فى وسعى ان احتمل اكثر من ذلك !

فهتف الاعضاء .. وترددت فى انحاء المكان عابرات الاطراء والاعجاب ..

قال ماكجنتى :

كلمة اخيرة ايها الاخ ماكموردو .. لقد قطعت على نفسك عهدا بالوفاء والاخلاص للجمعية . فهل تعلم ان عقوبة الخيانة ونكوث العهد هى الموت ولا شىء غير الموت .. ؟

ـ اعلم ذلك ..

ـ وهل تقطع على نفسك عهدا بالخضوع لاوامر الرئيس ايا كانت ومهما كانت الظروف .. ؟

ـ نعـم ..

ـ اذن باسم الجمعية ارحب بك بين اعضائها ..

وما كادت القبعة تنزل عن رأس ماكموردو ويلقى الفتى نظرة على معصمه حيث شعر بذلك الالم الهائل اثناء عملية الاختبار حتى رأى فوق المعصم دائرة يتوسطها مثلث قد وشمت بالحديد الحمى وتركت أثرها الابدى غائرا فى اللحم تعلوه حمرة شديدة .

وهنا كشف الاعضـاء عن معاصمهم فاذا تلك الشـارة موشومة عليها ..

* * *

وفى تلك الليلة بالذات .. أشترك ماكموردو وبلدوين واربعة آخرون من اعضاء الجمعية فى حادث ارهابى .. صـار فى

اليوم التالى حديث القوم فى الولايات المتحدة من أقصاها الى اقصاها .. اذ اقتحم هؤلاء الاشقياء دار جيمس ستانجر رئيس تحرير جريدة هرالد .. واشبعوه ضربا .. ونكلوا به تنكيلا .. لانه وجد الجرأة على ان ينشر فى اليوم السابق مقالا بعنوان (الارهاب فى مناطق التعدين) حمل فيه على الجمعية حملة شديدة . وراح يعدد جرائمها وفظاعاتها وحوادثها الارهابية .. ويستنهض رجال البوليس لقطع دابرها ..

الفصل الرابع — وعد

ابلى جون ماكموردو فى حادث الاعتداء على رئيس تحرير جريدة (الهرالد) والتنكيل به احسن البلاء .. فازدادت الثقة به .. واسندت اليه بعد ذلك مهام اجرامية انفذها بدقة وجرأة .. مما اكسبه اعجاب ماكجنتى وثقته .. وجعله يصيب شهرة واسعة بين المجرمين الذين يخشى شرهم ..

بيد انه خسر الى جانب ذلك عطف والد ايتى الذى منعه من غشيان بيته ومقابلة ابنته ..

اما الفتاة ذاتها فكانت تكن له نوعا من الحب .. فلم تقطع الامل فى رده الى سواء السبيل .. وقررت فى احد الايام ان تقوم بمحاولة أخيرة .. لانقاذه من الهوة السحيقة التى انحدر اليها .. فتسللت من بيتها خفية وقصدت اليه فى الحجرة التى استأجرها ببيت السيدة الايرلندية ..

وتصادف انها وجدت بابه مفتوحا .. فدخلت وهى تسير على أصابع قدميها لتفاجئه مفاجأة تدهشه .. وكان هو فى شغل بالكتابة فلم يفطن اليها حتى احس بيدها توضع على كتفه .. وعندئذ وثب واقفا كمن لدغته افعى .. وتحول الى الفتاة وشرر الغضب يتطاير من عينيه . ولكنه ما كاد يراها حتى انبسطت اساريره وجهه .. كأنما سرى عنه .. وزال خطر ما حق كان يتهدده ..

هتف : أهذا انت يا ايتى .. ؟

ورأى وجهها ممتقعا بتأثير الذعر الذى أستولى عليها .. فقال :

ـ ارجو المعذرة اذا كنت ازعجتك يا ايتى .. ولكن من كان على مثالنا يجب ان يكون متأهبا لكل طارىء .

فتهالكت على احد المقاعد وقالت :

ـ ماذا كنت تفعل حين قدومى يا جـــون أن من يرى امارات الخوف والذعر التى ارتسمت فى وجهك يشعر فى الحال انه أمام مجرم فوجىء وأخذت عليل السبل معذرة عن هذا التعبير يا جون .. ولكنى رأيت فى عينيك نظرات الرجل الذى لا يستمتع براحة الضمير ..

فظهرت على وجهه علامات الحيرة .. ولكنه قال بسرعة :

ـ الواقع اننى عنيت مستـــتغرقا فى التفكير حين فوجئت بيدك توضع على كتفى

فنظرت ايتى الى ورقة كانت أمامه وقالت :
ـ بل انك كنت تكتب .. فدعنى أرى لمن تكتب هـــذه الرسالة .. ؟

ولكنه أختطف الرسالة قبل ان تمتد يدها ..

قال وهو يطويها ويضعها فى جيبه :
ـ انها رسالة خاصـــة يا ايتى .. ولا يهمك ان تعلمى محتوياتها ..

فهزت رأسها .. وقالت وهى تنظر اليه بارتياب :

ـ رسالة خاصة .. !! ربما كانت لزوجتك أو لخطيبتك .. اذ من يدرينى انك لست متزوجا .. ؟ انك غريب عن هذه الديار .. وأنا لا اعلم عن ماضيك وحياتك الشخصية قليلا أو كثيرا ..

فهتف ماكموردو :

ـ اقسم لك يا ايتى انك أول مخلوقة احببتها .. امــا اخفائى هذه الرسالة فسببه انها تتضمن من أسرار الجمعية التى انتمى اليها ما لا أملك حق اذعاعته .
فصمتت الفتاة لحظة ثم قالت :

ـ اصغ الى يا جون .. اننى جئت خصيصا لاحـدثك فى أمر العلاقة بيننا .. والصلة بينك وبين الجمعية .. لقد سمعت أمس أحد النزلاء فى دارنا ينعتك بماكموردو السفاك .. واصدقك القول ان كلماته كانت كخنجر مزق قلبى .. !

فمرت على شفتيه ابتسامة غامضة وأجاب :

— لا تعبأى بكلام الناس يا ابنتى .. انهم يتقولون عنى بما ليس فى ..

فقالت له ضارعة :

— الا تستطيع ان تهجر هذه الجمعية الشريرة ياجون ..؟ الا تستطيع ان تنفض يدك منها لتعيش عيشة هادئة شريفة .. ؟

— لا تنسى يا ابنتى أننى قطعت على نفسى عهدا .. وبعد فاننى أعرف الآن من أسرار هذه الجمعية الشىء الكثير .. ولا احسبها تتركنى وشأنى اذا أنا قطعت صلتى بها ..

— أننى فكرت فى الامر مليا يا جون .. لقد ادخر ابى قليلا من المال .. وهو الآن يشعر باسأم والملالة هنا .. ويود أن يهجر هذه البقاع التى كثرت فيها حوادث الارهاب .. وبسط عليها هؤلاء الاشقياء سلطانهم .. فاذا شئت فتعال معنا .. تعال معنا الى فيلادلفيا .. أو نيويورك أو أى بلد آخر نستطيع ان نعيش فيه فى سعادة وطمأنينة ..

فضحك ماكموردو وأجاب :

— ان الجمعية واسعة النفوذ ايتها العزيزة .. وهى لن تعجز عن ان تنالنا فى فيلادلفيا أو فى نيويورك .

— اذن فلنرحل الى انجلترا .. أو السويد .. مسقط

بس ابى .. لنرحل الى أى مكان آخـــر بعيدا عن وادى الاهوال ..

وكانت الفتاة تتكلم بلهجة تنم عن الاخلاص .. فنظـر ماكموردو فى عينيها الصافيتين وفكر مليا ثم اجاب :

ــ دعيني أفكر فى الامر يا ابنتى .. يجب ان ابحث عن تسوية شريفة امهلينى ستة أشهر .. أو ثمانية أشهر على الاكثر .. نعم .. ربما استطعت بعد ســتة أو ثمانية أن انفض عن حذائى تراب هذا الوادى المخيف ..

فهتفت الفتاة : اتعدنى بهذا .. ؟

ــ نعم اعدك ..

الفصل الخامس ــ جريمة جديدة

ارسل ماكجنتى فى طلب جون ماكموردو .. فلما جــاءه انتحى به ناحية من منتدى (يونيون هاوس) وراح يكشف له عن نواياه .. قال له :

ــ لدى مهمة اخرى خطيرة يا ماكموردو .. ولست أجد من هو أكفأ منك للاضطلاع بها ..

ــ اننى فخور بسماع هذا الاطراء يا سيدى الرئيس ..

ــ اعلم يا جون اننا لن نطمئن على انفسنا فى هذه البقاع ما دام شستر ويلكوكس على قيد الحياة .. ولسوف تكسب ثناء الجميع واعجابهم اذا خلصتنا من هذا الرجل ..

ـ سأبذل ما فى وسعى . . . ولكن حدثنى بالمزيد من أمر هذا الرجل . . وكيف استطيع الوصول اليه . . ؟

ـ هذا الرجل هو رئيس اتحاد شركات الحديد . . وهو جندى قديم . . تعرفه بشعره الاشيب وبالجروح العديدة التى تشوه وجهه . . ولقد قمنا بمحاولتين للقضاء عليه لكننا لم نوفق وقتل جيمس كارناواى فى احدى هاتين المحاولتين . .

ثم اخرج من جيبه خريطة واضع اصبعه على مكان منها واستطرد :

ـ وبيت الرجل يقع على بقعة خاوية كما ترى فى هذه الخريطة . . ولا يوجد منزل آخر على مقربة منه . . فعليك الا تذهب اليه فى وضح النهار . . فانه يحمل سلاحه دائما ولا يتردد فى اطلاق النار على من يشتبه فيه . . وتستطيع ان تجده فى داره ليلا ومعه زوجته وأطفاله الثلاثة وخادمة واحدة . . واذا استطعت ان تنسف البيت بواسطة الديناميت كان ذلك . .

فقاطعه ماكموردو : وماذا اقترف هذا الرجل . . ؟

ـ ألم أقل لك أنه قتل جيمس كارناواى . . ؟

ـ ولماذا قتله . . ؟

ـ وجده يحوم حول منزله ليلا فأرداه قتيلا برصاصة من مسدسه . . .

— ولكن ماذا افعل بالمرأتين والاطفال الثلاثة .. ؟ هل الحقهم بعائلهم ؟

— انك ستضطر الى ذلك حتما ..
— ولكن هذه قسوة كبيرة لا يوجد ما يبررها ..
— يجب ان يكون انتقامنا شاملا وهائلا ..
— لا يسعنى الا ان أطيعك طاعة عمياء يا سيدى الرئيس .
— اذن ستقوم بانقاذنا من هذا الرجل ؟
— لا جدال فى ذلك ..
— ومتى .. ؟

— امهلنى يوما أو يومين حتى اتحقق من موقع المنزل واضع خطبى ..

وبعد يومين .. علم القوم فى فرميسا ان بيت شستر ويلكوكس قد حدث به انفجار قوضه .. وجعله أثرا بعد عين . ولكنهم اطمأنوا وتنفسوا الصعداء حين قيل لهم أن صاحب الدار شعر بأن خطرا يتهدده .. فرحل عن بيته ومعه زوجته وأولاده فى اليوم السابق لحدوث الانفجار ..

الفصل السادس ـ الخطر

— هل استطيع ان اتحدث اليك بحرية يا مستر ماكموردو .. ؟!

كان المتكلم شابا فى مقتبل العمر يدعى موريس .. عرف بالاستقامة ودماثة الخلق .. ولكنه التحق بعضوية الجمعية تنتبا لشرها .. وفرارا من بطشها ..

فأجابه ماكموردو : بكل تأكيد .. قل ما عندك ..

ــ انني أشعر بأنك الشخص الوحيد الذى استطيع ان أفضى اليه بدخيلة نفسى وأنا آمن من كل سوء .. ان لدى سرا يضايقنى .. واخشى اذا افضيت به ان يؤدى حتما الى القتل وسفك الدماء واذا كتمته ان يجــر علينا الخراب والدمار ..

ــ صارحنى بما عندك .

فأجال موريس الطرف حوله فى حذر ثم قال :

ــ لقد علمت ان جماعة من أصحاب رؤوس الاموال فى هذه المنطقة قد اتفقوا مع ادارة الابحاث الجنائية فى بنكرتون على ايفاد أحد المفتشين المهرة .. للايقاع بأعضاء جمعيتنا .. ولا شك انك تعلم الشىء الكثير عن مهـــارة رجال الادارة وبراعتهم وقوة شكيمتهم ..

ــ نعم .. نعم .. لقد سمعت كثيرا عن أعمالهم وبراعتهم .

وظهرت على وجه ماكموردو علامات الاهتمام الشـــديد والانزعاج .. وما لبث ان قبض على كتف موريس بشــدة وهتف :

ــ خبرنى يا رجل .. كيف علمت بهذا النبأ .. ؟ ومن هو المفتش الذى جاء لمطاردتنا ..؟

ــ ان لى صديقا يشتغل بارسال الاوامر بالتلغراف بادارة الابحاث الجنائية فى بنكرتون .. وقد بعث الى هــــذا

الصديق أمس خطابا يسأل فيه بتهكم عن الابطال السفاكين الذين يعبثون فسادا فى هذا الوادى .. و (يبشرنى) بقرب استئصال شأفتهم بفضل المفتش الذى ارسل خصيصا لهذا الغرض ..

— ومن هو هذا المفتش .. ؟

— هو أمهر مفتشى البوليس فى بنكرتون على الاطلاق .. اسمه بيردى ادواردز .

فامتقع وجه ماكموردو وسأل الفتى :

— هل علم أحد بهذا النبأ .. ؟

— كلا .. لم أطلع عليه أحد سواك ..

— هل تظن ان لصديقك هذا أصحابا آخرين فى هذه المنطقة يحتمل ان يكتب اليهم فى هذا الصدد .. ؟

— نعم .. ان له أصدقاء بيننا ..

— من أعضاء هذه الجمعية .. ؟

— هذا ما ارجحه .. ولكن لم هذا السؤال .. ؟

ففكر ماكموردو لحظة ثم قال :

— يهمنى ان اعلم هل كتب لآخرين ام لم يكتب .. ولكن حدثنى .. هل تعرف اوصاف البوليس القادم لمناوأتنا .. ؟

— كلا

— اما أنا فأعرفه ..

ثم ضرب جبهته بيده وهتف :

ـ اطمئن .. لقد تفتق ذهنى عن خطة عجيبة .. وسوف تمكننا من ان نضع أيدينا على مفتش البوليس هذا قبل ان يمسنا بسوء ..

* * *

وما انصرف موريس وخلا ماكموردو الى نفسه .. حتى أخذ يسير فى الغرفة جيئة وذهابا وقد تبدلت سحنته وتغضن جبينه .. وظهرت عليه علامات القلق .

وأخيرا نهض الى أوراقه فأتلفها جميعا ثم قصد للتو الى منزل (آيتى) فهرعت الفتاة لمقابلته .. وراعها ما رأت على وجهه من مظاهر الجد والرزانة ..

هتفت : هل من جديد يا جون .. ؟ هل أنت فى خطر .؟
فأجاب بصوت خافت :

ـ كلا يا عزيزتى فاطمئنى .. كل ما هنالك اننى أرى من الحكمة ان نستعد للرحيل من هذا البلد ..

ـ نستعد للرحيل .. ؟!

ـ ألم اعدك بذلك يا ايتى .. ؟ أننى أحسب ان الوقت قد حان للوفاء بوعدى فقد اتصلت بى انباء تشجعنى على الرحل بأسرع ما يمكن ..

ـ اننى على استعداد لمرافقتك حيثما تريد يا جون .. بشرط أن تقطع كل صلة بينك وبين هؤلاء الاشرار ..

ـ اذن فكونى على استعداد .. فستقع فى هـذا البلد

احداث جسام .. ومن المحتمل ان نضطر الى الرحيل فى اية ساعة من ساعات النهار أو الليل ..

* * *

ووضع ماكموردو مع الفتاة خطة للفرار .. ولما اطمأن الى ذلك قصد لتوه الى منتدى (يونيون هاوس) حيث قابل الرئيس ماكجنتى .. وأوضح له الخطر الذى يهدد الجمعية من قدوم بيردى ادواردز أمهر مفتشى البوليس فى بنكرتون وطلب اليه دعوة الاعضاء للاجتماع والتشاور فى الامر ..

الفصل السابع ــ المؤامرة

عقدت جمعية فرميسا جلسة ستثنائية فى مساء ذلك اليوم وطلب الرئيس ماكجنتى الى جون ماكموردو ان يدلى الى اخوانه أعضاء الجمعية بما علم من الجهود الجديدة التى يبذلها كبار أصحاب رؤوس الاموال فى وادى فرميسا للبطش بأعضاء الجمعية .. فأنهى ماكموردو الى زملائه بما علم من موريس .. وختم كلامه بقوله :

ــ والآن اترك لكم أيها الرفاق ان تقرروا ما ترون فى شأن مفتش البوليس الذى يريد الايقاع بنا .. ومتى قررتم شيئا زودتكم من الانباء والمعلومات بما يساعدكم على انفاذ قراركم ..

فهتف هاتف بين الاعضاء :

— وأى قرار آخر نتخذ غير ان نعمــل على اهلاك بيردى ادواردز قبل آن يسوقنا الى المشنقة .. ؟

وصاح آخر : نعم الموت لمفتش البوليس ..

وحبذ الاعضاء هذا الرأى بالاجماع وبحماسة شديدة .. وعندئذ نهض ماكموردو وقال :

— ما دمتم قد اتخذتم هذا القرار الحكيم أيها الرفاق .. فيجب ان أفضى اليكم بما عندى من معلومات أخــرى .. فأقول أولا اننى وقعت على أثر بيردى ادواردز هنــا .. فى فرميسا ..

— فاتفعت الصيحات من كل ناحية : هنا .. ؟!

— نعم .. أننى وقعت على أثره .. وهنا .. بل وتحدثت اليه فى أحد الشوارع القــريبة من هــذا المكان .. وكدت انخدع بتمويهه وكذبه ..

كان ماكموردو يتكلم وجميع الانظار تحملق نحوه .. وقد خيم فى جو قاعة الاجتماع لاول مرة شعور بالخطر الداهم .. مضى ماكموردو فى حديثه فقال :

— اننى التقيت به فى أحد الشوارع القريبة منذ يومين .. وعرفته وتحدثت أليه .. وسألته عن السبب فى وجــوده فى هذه الناحية فافهمنى آنه طلق أعمـــــال البوليس .. واشتغل بالصحافة .. وان جريدة (الهيرالد) قد اناطت به مهمة وضع تقرير عن حالة الامن فى « وادى فرميسا » ..

وقد صدقته ولم آعلق على وجوده هنا أية أهمية الى أن عرفت بفضل أحد الزملاء حقيقة المهمة التى جاء من أجلهـا ثم استطرد بصوت مرتفع :

ـ انه جاء ليضع حبل المشـنقة فى أعناقنا .. والرأى عندى ان نورده موارد الهلكة قبل ان يفكر فى الاضرار بنا ..

قال ذلك وجلس فصفق له الاعضـاء بحماسة .. وقال ماكجنتى :

ـ الآن يجب ان نقترع على العضو والاعضاء الذين يعهد اليهم فى القضاء على هذا الشرطى القذر ..

فقال بلدوين :

ـ أفضل وسيلة لاهلاكه ان تنقض عليه جماعة منا تحت جنح الظلام وتعمل فيه خناجرها فلا تتركه الا جثة هامدة.

فقال ماكموردو :

ـ ان الجماعة التى تقدم على ارتكاب مثل هذه الجريمة فى عرض الطريق تعرض نفسها لخطر جسيم .. سـيما بعد آذ نشط الكابتن مارفن مدير البوليس المحلى لتطهيـر هذه الناحية ممن اعتدوا على محـرر جريدة الهيرالد .. اننى فكرت فى الامر مليا طيلة الساعات التى أعقبت معرفتى بالخطر الذى يتهددنا .. وقد وجدت أنه ليس أسهل من العثور على بيرودى ادواردز ومعرفة مقره .. والايقاع به بالطريقة التالية :

* * *

. ثم أوضح لزملائه خطته وناقشهم فيها واستعان بهم على حبكها .. ووعد بأن يطلعهم على نتيجة جهوده فى مساء اليوم التالى ..

الفصل الثامن ـ الكمين

وفى مساء اليوم التالى عقد أعضاء الجمعية جلستهم لمعرفة النتيجة التى تكللت بها جهود زميلهم ماكموردو الذى صيرته حوادث الاسابيع الاخيرة صاحب أبرز شخصية بينهم ..

وكانت تبدو على ماكموردو فى ذلك المساء علامات الارتياح فأيقن اخوانه أنه وفق فى مهمته غاية التوفيق ..

تحولت اليه جميع الانظار حين نهض واقفا وراح يقول :
ـ لقد وفقت الى تنفيذ الخطة التى اتفقنا عليها أمس بجميع دقائقها وتفاصيلها .. فبحثت عن ادواردز .. واستطعت بفضل أحد عمال جريدة (الهيرالد) أن اعلى انه يقيم فى (هوبسونزباتش) ضاحية فارميسا..وقد خدمتنى الظروف فصادفت ذلك التعس عند انصرافه من مكتب التلغراف ..

وقد حاول المضى فى كذبه ونفاقه فقال انه كان يبعث ببرقية الى احدى صحف نيويورك تتضمن تفاصيل كارثة وقعت فى أحد المناجم القريبة . ولكنى كنت واثقا من انه قصد الى مكتب التلغراف ليبعث بتقريره الى ادارة الابحاث الجنائية فى بنكرتون ..

وقد ساقنا الحديث عن كوارث المناجم وضحاياها الى الكلام عن حالة العمال فى هذا الاقليم بصـــفة عامة ثم عن النقابات والاتحادات والجمعيات . وتكلمنا بعدئذ عن حوادث الارهاب وجمعية فارميسا .. وهنا قال لى انه يتعين عليه بحكم المهمة الصحفية التى ساقته الى هذا الاقليم ان يكشف عن حقيقة جمعية (فرميسا) التى تعـــزى اليها حوادث الارهاب التى ارتكبت وترتكب فى هذا الاقليم ..

وحسب انه يستدرجنى للافضاء بما عندى . والاعتراف بأن لى صلة ما بهذه الجمعية التى لا يمكن ان تنقصها عضوية شقى فى مثلى . وما زلت أراوغه وهو يعتقد أنه يغريني .. الى أن عرض على مبلغ مائتى دولار لكى أبوح له بما اعلم من شئون الجمعيـــة .. ولكنى افهمته انى استطيع ان اؤدى له خدمة أجل .. وذلك بأن اشفع له لقبوله واوصى به عضوا فى الجمعية .. وبهذه الوســيلة يستطيع التغلغل فى أسرار الجمعية ..

وفرك ماكموردو كفيه بارتياح واستطرد بصوت هادىء وهو يبتسم :

— وهكذا سيشرف مفتش البوليس بيردى ادواردز هذا المكان الليلة فى منتصف الساعة العاشرة ..

وهنا تحركت ايدى الاعضاء الى مسدساتهم وخناجرهم .. كأنهم يتمنون دخول مفتش البوليس لينقضوا عليه .

قال ماكجنتى : الا تخشى اذا قتلناه واخفينا جثته ان .. الشبهة حولك ويقترن وجودك اليوم فى هوبسونزباتش باختفائه .. ؟

فهز ماكموردو منكبيه وقال :

ـ اننا اذا احتطنا فى القيام بهذه المهمة ونفذناها على خير الوجوه فلن يستطيع أحد ان يقيم الدليل على أنه قد قتل حقا .. ثم أنه سيتعذر على كائن من كان ان يتبين تقاطيع وجهه .. لانه سيجىء الينا متنكرا .. والآن اصغ الى خطتى أيها الرئيس .. انكم ستكمنون فى هذه القاعة التى أعدت لجلوس طلاب الانضمام الى الجمعية .. واذا جاء ادخلته الى الغرفة الصغيرة المجاورة لها وطلبت اليه الانتظار بها لحظة حتى اخطر الرئيس بمقدمه ثم أعود اليه بعدئذ واجاذبه أطراف الحديث حتى اتمكن من سرقة مسدسه .. وعندئذ تسرعون أنتم الى نجدتى لانه على جانب عظيم من القوة .. وقد اجدد عناء فى التغلب عليه .

فقال ماكجنتى :

ـ انها خطة محكمة التدبير وسوف تعترف الجمعية بفضلك عليها الى الابد وثق أنه اذا حان الوقت الذى اتنحى فيه عن مقعد الرئاسة فلن اتردد فى ارشاد الاعضاء الى من ينبغى أن يخلفنى فى مركزى .

فقال ماكموردو : ما أنا الا جندى بسيط فى جيشكم يا سيدى الرئيس ..

* * *

دبر القوم حيلتهم لاستدراج مفتش البوليس ادواردز والفتك به تدبير محكما وراحوا ينتظرون قدومه بفارغ الصبر لينفذوا فيه حكم الاعدام الذى أصدره عليه .

وانتصفت الساعة العاشرة أو كادت فاشتد برجال العصابة القلق والجزع . وحبسوا أنفاسهم فى انتظار ان يسمعوا حركة تدل على اقتراب فريستهم ..

قال بلدوين محدثا ماكموردو : الا تظن أنه ربما شعر بالخطر فتراجع .. ؟

— كلا أنا واثق أنه سيحضر .. أنه يذوب لهفة وفضولا الى معرفة أسرارنا .. اصمتوا ها انذا اسمع وقع اقدام تقترب ..

فجمدوا فى اماكنهم .. وما هى الا ثوان حتى سمعوا طرقا بالباب فرفع ماكموردو أصبعه الى شفتيه محذرا رفاقه وقال همسا :

— حذار ان تنبسوا ببنت شفة ..

وترك مكانه .. وقصد الى الباب ففتحه وخرج ... وسمع رفاقه صوته وهو يرحب بالفريسة المنتظرة .. ثم أخذ هذا الصوت يبتعد ويتضاءل .. فأدركوا ان ماكموردو قد ذهب بادواردز الى غرفة الاستقبال وان مفتش البوليس قد وقع فى الشرك وانتهى الامر ..

وما هى الا دقائق معدودة حتى فتح الباب وظهر ماكموردو ..

وقف بالباب وراح يقلب البصر فى رفاقه وقد ظهرت على وجهه امارات العزم والارادة الجبارة .. وتألق فى عينيه بريق الذكاء والدهاء ..

ونظر اليه رجال العصابة فى فضول .. ولكنه ظل يتفرس فيهم بتلك النظرات المستفسرة الغريبة .. صاح ماكجنتى آخر الامر :

ـ هل اتى اخيرا .. ؟ هل سعى بيردى الى حتفه برجليه .. ؟

فقال ماكموردو فى بطء وهدوء :

ـ نعم .. ان بيردى ادواردز هنا .. هو أنا ..

فساد فى المكان صمت عميق كأنما قد أقفر من الاحياء .. وتحولت جميع الانظار فى فزع نحو ماكموردو ..

قبل أن يدرك القوم حقيقة الموقف تحطم زجاج النوافذ وامتدت منها فوهات البنادق والمسدسات ..

وشعر القوم بالخطر بغتة .. فسأو بينهم الهرج والمرج وزأر ماكجنتى كالاسد الجريح واندفع الى الباب طلبا للنجاة . فقابله الكابتن مارفن ومسدسه فى يده . فتقهقر ماكجنتى على الاثر وتهالك فى مقعده ..

اما المجرم مزيف النقود الذى كان معروفا باسم ماكموردو فانه تحول الى ماكجنتى ومسدسه فى يده وقال :

ـ نعم .. خير لك الآن تقبع فى مكانك يا سيدى .. اما أنت يا بلدوين فيحسن بك ان تترك من يدك هذا المسدس

اذا كنت تحرص على حياتك . وثقوا جميعا انه لا أمل فى المقاومة فالمنزل محاصر بثلة من رجال البوليس .. والآن مر رجالك بتجريدهم من سلاحهم يا مارفين ..

وكانت المفاجأة قد أذهلت الاشقياء فتخاذلوا ولم يخطر لاحدهم ان يقاوم . وكانت النتيجة ان رجال الكابتن مارفين لم يجدوا صعوبة فى تجريدهم من أسلحتهم .. ولما تم ذلك اجال ماكموردو ادواردزا لبصر بين رفاقه السابقين وقال :

ـ دعونى أقول لكم كلمة قبل ان نفترق فما احسب أننا سنتقابل الا فى ساعة المحكمة ..

فنظروا آليه نظرات حقد وبغض .. ولكنه لم يحفل بهم ومضى يقول :

ـ نعم .. أحب ان تعلموا قبل ان نفترق ان نجاحى فى التمويه عليكم وايقاعكم فى المصيدة كان تاما .. فأنا لم أكن قط مجرما .. ولم أكن مزيف نقود .. وقطع العملة التى قدمتها آليكم كانت كلها حقيقية لا زيف فيها ..

كذلك أحب ان تعلموا .. جريمة واحدة لم استطع الحيلولة دون وقوعها .. وتلك هى جريمة الاعتداء على محرر جريدة (الهيرالد) فان الوقت لم ينفسح لى لانذره واحذره . ولكنى نجحت فى اقناع بلدوين وزملائه فى حادث هذا الصحفي بأن يكتفوا بضربه دون قتله .

كذلك نجحت فى تحذير شستر ولكوكس فى الوقت المناسب .. فتمكن من الفرار بعائلته وأولاده قبل ان انسف بيته ..

وهنا غمغم ماكجنتى وهو يصر بأسنانه :

ــ قبحك الله أيها الخائن اللئيم .. سوف لا تنجــو من انتقامنا ولو اعتصمت بالجحيم ..

فأجاب ادواردز :

ــ اذا حسبتم انكم تستطيعون الانتقام منى .. فانكم فى ضلال مبين .. ذلك ان بعضكم سيلقى حتفه على الكرسى الكهربائى .. وبعضكم سيقضى سنوات عدة فى ظلمــات السجون ..

ثم التفت الى الكابتن مارفن وقال :

ــ ارجو المعذرة يا مارفن .. لقد احتجزتك ورجالك هنا اكثر مما يجب . ولكنى أحببت فقط ن اذيق هؤلاء الاشقياء نوعا من أنواع القلق والعذاب والخوف الذى طالما اذاقوها ضحاياهم .

دع رجالك يزينون معاصم هؤلاء بالاصفاد يا مافن ..

وفى صباح اليوم التالى ســافر ادواردز وايتى ووالدها الى شيكاغو . وهناك عقد لمفتش البوليس على الفتاة التى أحبها .

أما عصابة ماكجنتى فقد حوكم اعضاؤها . وكانت شهادة المفتش آدواردز والادلة التى قــدمها قاطعة فى ادانتهم .. فحكم على ثلاثة منهم بينهم ماكجنتى ــ الاعدام وحكم عليهم بالسجن عشرة اعوام . فقضوا هذه المدة فى الليمان وهــم تتراوح بين الستة والعشرين سنة ..

* * *

بيد أن مأساة وادى الاهوال وفواجعه لم تنته عند هذا .. بل كانت لها ذيول وكان لها صـــدى رددته السنوات التالية .

ذلك أن تيد بلدوين ونفرا آخرين من أعضاء عصـــابة فرميسا .. افلتوا من الاعدام وحكم عليهم بالسجن عشرة أعوام . فقضوا هذه المدة فى الليمان وهم يحصون الشهور والايام .. الى ان ادوا دينهم للعدالة واطلق سرحهم وبرزوا مرة أخرى الى الوجود .. فاتفقوا فيما بينهم على الانتقام لانفسهم ولزملائهم من ذلك الذى خـــدعهم شر خدعة .. وكان أكثرهم موجدة على الضابط ادواردز هو تيد بلدوين . فانه كان ينقم عليه أنه سلبه الفتاة آلتى كان يريد الاقتران بها ثم سلبه حريته . وكان السبب فى انه قضى عشرة أعوام فى قبور الاحياء ..

لذلك كان تيد بلدوين أشد الجميع حماسة ضد بيردى ادواردز .. فتزعم اخوانه وجعل لنفسه الكلمة عليهم .. وراح معهم يطارد ذلك العدو اللدود الذى حزموا أمـــرهم على ازالته من الوجود مهماكلفهم ذلك ..

ولكن مفتش البوليس كان لبقا حـذرا .. فعرف كيف يفلت من الشباك التى نصبوها له .. ولكنه اضطر آخـــر الامر الى المهاجرة من شيكاغو الى كاليفورنيا وفى كاليفورنيا فقد بيردى ادواردز زوجته .. ففقد بوفاتها نعيم الحياة . ولم يعد يعرف للسعادة طعما .

ولما ضيق عليه اعداؤه الخناق وسدوا عليه السبيل .. وجعلوا حياته لا تطاق . وذهبوا يترصدونه فى كل مكان للفتك به .. أستبدل لقبه وتسمى باسم جون دوجلاس.. وكان قد هجر أعمال البوليس بعد ان شتت شمل عصابة فرميسا ولكنه عاد فراح يلتمس فى العمل الشاق عزاء وسلوى عن فقد زوجته العزيزة (ايتى) .. فاشتغل بالتعدين فى المناجم مع رجل انجليزى يدعى سيسل باركر واصابا معا ثروة طائلة .. واصبحا من الاغنياء ..

وكان اعداؤه وفى مقدمتهم تيد بلدوين يجدون فى أثره .. كأنما لا يطيب لهم عيش الا بازالته من الوجود .. وقد هداهم بحثهم الى مقره . وشعر ادواردز أو دوجلاس (اسمه الجديد) بالشباك تنصب حوله وبخصومه يوشكون ان يبطشوا به .. فنزح الى انجلترا . حيث اتخذ زوجة ثانية . وعاش مع زوجته وصديقه باركر عيشة هادئة فى قصر برلستون بمقاطعة (ساسكس) الى ان وقعت الفاجعة التى سردنا تفاصيلها فى القسم الاول من هذه القصة .. والتى لعب شرلوك هولمز الدور الاول فى اماطة اللثام عن غوامضها وأسرارها ..

الخاتمة

بعد ان كشف هولمز غوامض جريمة برلستون .. واعترف جون دوجلاس بالحقائق التى اسلفناها .. لم يجد المفتش ماكدونالد بدأ من استصدار الامر بالقاء القبض على دوجلاس بتهمة قتل تيد بلدوين ..

وقد اتخذت الاجراءات المعتادة فى مثل هذه الظروف . واحيل جون دوجلاس الى محكمة الجنايات .. ولم يستطع الاتهام أن يثبت غير ما اعترف به دوجلاس من ان المقذوف النارى الذى انطلق عفوا اثناء النزاع قام الذى بينه وبين تيد بلدوين ..

وقد نهضت نظرية الدفاع عن المتهم على ان هذا الاخير — يفرض انه اطلق البندقية عمداً — انه كان يدافع عن نفسه ضد عدو يطارده منذ عشرين سنة واجتاز نصف الكـــرة الارضية لكى يفتك به .

وقد أخذت المحكمة بنظرية الدفاع فقضت ببراءة المتهم.

* * *

ولما علم هولمز بهـــذا الحكم .. بعث الى زوجة دوجلاس بالرسالة التالية :

« نصيحتى اليك ان تقنعى زوجك بأن يبرح انجلترا الى مكان آخر .. فانه يستهدف باقامته هنا الى اخطار خفية تفوق فى شدتها وهولها تلك التى وفق الى الافلات منها . وهو لن يأمن على حياته اذا بقى فى انجلترا » .

* * *

وانقضى بعد ذلك شـــــهران كدنا ننسى فى خلالهما تلك الاحداث التى مرت بنا .

وفى صباح أحد الايام وردت الى هولمز رسالة مقتضبة بلا امضاء .. عليها هذه الكلمات :

« أنت ذكى يا هولمز . ولكنك لست اذكى الناس » .

وقد قرأت هذه الرسـالة ولم أفهم لها معنى . بيد ان هولمز أهتم لها اهتماما شديدا ..

سألنى : الا ترى لهذه الرسالة المقتضبة مغزى ؟

فأجابت : أعتقد انها دعابة سمجة من أحد الثقلاء .. وليس لها معنى يستحق الاهتمام ..

فقال هولمز : ان الشخص الذى بعث الى بهذه الرسالة يقصد الى الهزؤ بى والسخرية منى . والذى أفهمه من هذه السخرية أنه أفسد امرا كانت لى به صلة .. أو لعبت دوراً فيه . ولا يبعدان يكون هذا الساخر المتهكم هـو صديقنا الاستاذ موريارتى ..

وجلس مقطب الجبين وعلى وجهـه عـلامات التفكير والاهتمام . ثم هز رأسه أخيرا وقال :

ـ أفهم من هذه الرسالة أن حادثا مزعجا سيقع . لو أن نبأ مؤلما سيصل الى إسماعنا ..

* * *

وفى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم .. جاءتنا مـدام هدسن .. صاحبة البيت الذى يقيم فيه صديقى هولمز . وقالت لنا ان بالباب رجلا يريد مقابلة هولمز لامر على جانب عظيم من الاهمية .

وقبل ان تتم كلامها .. دخل الرجل فى اثرها .. فعرفنا فيه صاحبنا سيسل باركر الذي قابلناه لاول مرة فى قصر برلستون .

وقد كان عابس الوجه منقلب السحنة .. وتقاطيعه وحركاته تدل على الاهتمام والانزعاج .

دعاه هولمز الى الجلوس . وما كاد يستقر به المقام حتى قال :

ــ أننى احمل اليك نبأ سيئا يا مستر هولمز .. بل انه نبأ مخيف ومروع حقا .

فرمقنى هولمز بنظرة سريعة ثم اجاب :

ــ هذا ما كنت اتوقعه .

فهتف مستر باركر :

ــ هل جاءتك برقية اذن ؟

فأجابه هولمز :

ــ بل جاءتنى رسالة من شخص ارجح ان له اتصالا بالموضوع الذى جئت بصدده .

فقال باركر :

ــ اننى جئتك فى صدد صديقي القس جون دوجلاس . فهل تذكر أننى انبأتك بأنه ابحر مع زوجته الى جنوب افريقيا منذ ثلاثة أسابيع ؟

ــ اذكر ذلك . واذكر اننى نصحت لهما بالرحيل بعيدا عن آنجلترا .

فقال باركر :

ــ ان الباخرة التى ابحرا بها وصلت الى مدينة (الكاب) امس . وقد تلقيت من مدام دوجلاس هذه البرقية :

وقدم الى هولمز برقية قرأ فيها صديقى ما يلى :

« هبت على الباخرة عاصفة شديدة بالقرب من جزيرة سانت هيلانة افتقدنا على أثره زوجى فلم نقع له على أثر .. ولا يعلم أحد ما آل اليه مصيره . والمرجح أن العاصفة قذفت به الى البحر » .

* * *

قرأ هولمز هذه البرقية ثم ردها الى صاحبها .. وقال وهو مقطب الجبين :

ـ واذن على هذا النحو انتهت حياة هذا الرجل الباسل ؟ !

ـ ليس عندى ادنى شك فى ان حادث سقوطه فى البحر قد دبر تدبيرا محكما .

فسألته :

ـ هل تريد ان تقول ان المصادفات البحتة ليس لها دخل فى هذه الفاجعة ؟ اعنى ألا يمكن الاعتقاد بأن الرجل سقط فى الماء بالقضاء والقدر ؟

ـ كلا ..

اذن تعتقد أنه قتل ؟

فأجاب هولمز :

ـ لا شك أنه ذهب ضحية مؤامرة متقنة محبوكة الأطراف .

ـ اننى كذلك أميل الى الاخذ بهذا الرأى .. واظن ان أولئك القتلة السفاكين قد نجحوا أخيرا فى الاخذ بتأثرهم

وثأر زملائهم والانتقام من الشرطى البارع لذى حطم شوكتهم ومزق جماعتهم شر ممزق .

ولكن هولمز هز رأسه وقال :

ـ كلا يا عزيزى وطسن .. الامر ليس كما تظن .. فأنا أرى اصبع الاستاذ موريارتى فى هذا الحادث . وأعتقد ان هذه الجريمة الجديدة دبرت وطبخت فى لندن لا فى أمريكا .

سألته :

ـ ولكن ما الذى يحملك على هذا الاعتقاد ؟

ـ يحملنى على هذا الاعتقاد نجاح التدبير بهذه السرعة وهذه الدقة .

ان فكرة (أضاعة) انسان فى البحر وسط عاصفة هوجاء ليست من الافكار التى تطرأ لامثال أعضاء عصابة فرميسا. فهؤلاء قوم طبعوا على الخشونة والغلظة . وأعمالهم تنطوى على البطش والجبروت وليس على التفكير والتدبير .

أرأيت الى تيد بلدوين وكيف اراد قتل دوجلاس فى عقر داره .

ان هذه الجريمة الاخيرة قد دبرها رجل كتب له التوفيق فى أعماله حتى الآن الى أبعد حدود النجاح فى اصابة هدفه على الوجه الذى يريد ..

لقد تحالف علي اهلاك دوجلاس التعس ذهن جبار .. واعوان مدربون تدريبا تاما .. فلم يكن ثمة بد من ان يقتل دوجلاس هذه القتلة العنيفة .

فسألته :

ــ هل أفهم من كلامك ان الاستاذ موريارتى هو الذى دبر هذه الجريمة ..؟ ولكنى لا أرى صلة بين رجال فرميسا والاستاذ موريارتى ..

فقال هولمز :

ــ كل ما استطيع ان أقوله فى الوقت الحاضر هو ان أول رسالة وردتنا ولها أتصال بحوادث هذه القضية كانت من أحد اتباع موريارتى . وفى ذلك دليل على أن لموريارتى اصبعا فى هذه الحوادث .

لقد سعى أولئك الامريكيون من أول الامر حينما علموا أن غريمهم قد حل بانجلترا الى الاتصال بموريارتى وتحالفوا معه على القضاء على خصمهم كما يفعل المجرمون فى كل بلاد العالم . ولقد قضى عليه من تلك اللحظة بالموت المحقق . ولقد قنع موريارتى أول الامر بارشادهم الى مكان غريمهم ورسم لهم خطة آلفتك به .. حتى اذا علم أخيرا انهم قد اخفقوا فى مهمتهم ولم ينالوا منه منالا ظهر بنفسه على المسرح وقام بالمهمة على الوجه الذى أوحته اليه عبقريته . ولعلك تذكر اننى قد حذرت دوجلاس من الخطر آلذى ينتظره وقلت له انه يفوق فى هوله جميع الاخطار التى استهدف لها فى ماضى حياته . فهل ترانى كنت على صواب؟

فهتف باركر محدثا هولمز :

ــ وهل ينبغى ان نجلس مكتوفى آلايدى ازاء هذه الجريمة البشعة ؟ وهلا يمكن مقاومة هذا الشيطان الذى تدعوه الاستاذ موريارتى ؟!

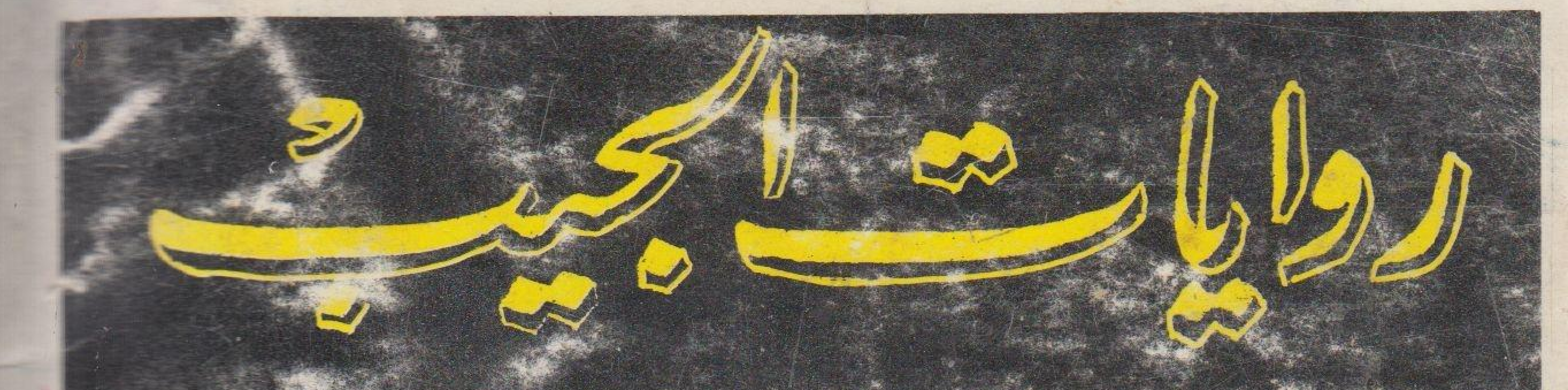
فقال شرلوك هولمز وقد صـــوب بصره الى الافق كأنه يستشف ثنايا المستقبل .

ــ كلا .. انني لا أقول باستحالة التغلب عليه . فمصير هذه العبقرية المختلة لا يمكن ان يختلف عن مصير امثالها .. فصبرا ..

وخيم السكون .. وراح هولمز ينظر امامه كأنه يتطلع الى افق بعيد .

(تمت)

رقم الإيداع ١٩٩٣/٧١٨٦



المجلة القصصية الفريدة

التى تقدم إلى قرائها افضل

ما انتجته روائع القصص

العالمية والمغامرات

مجلة روايات الجيب : الثمن ١٠٠ قر

رئيس التحرير : عمر عبد العزيز أمين